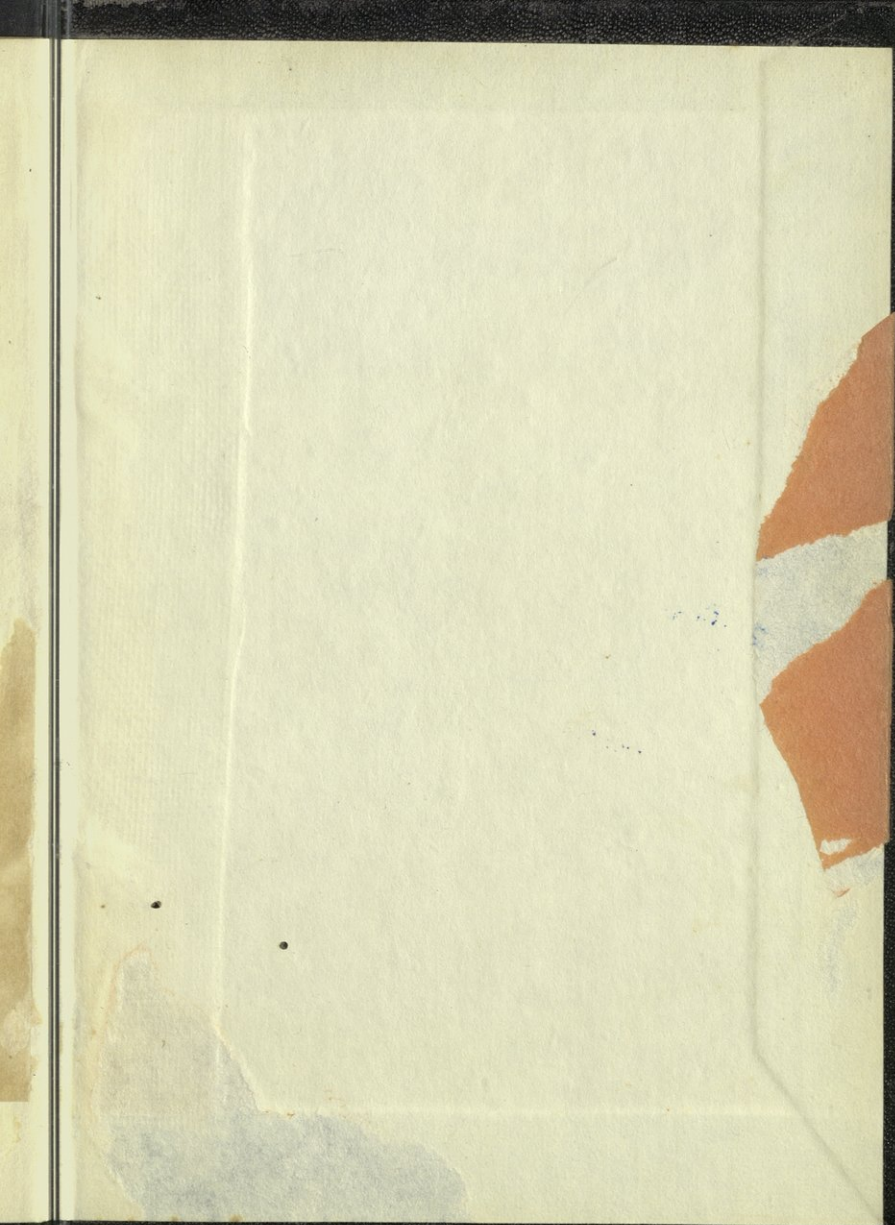
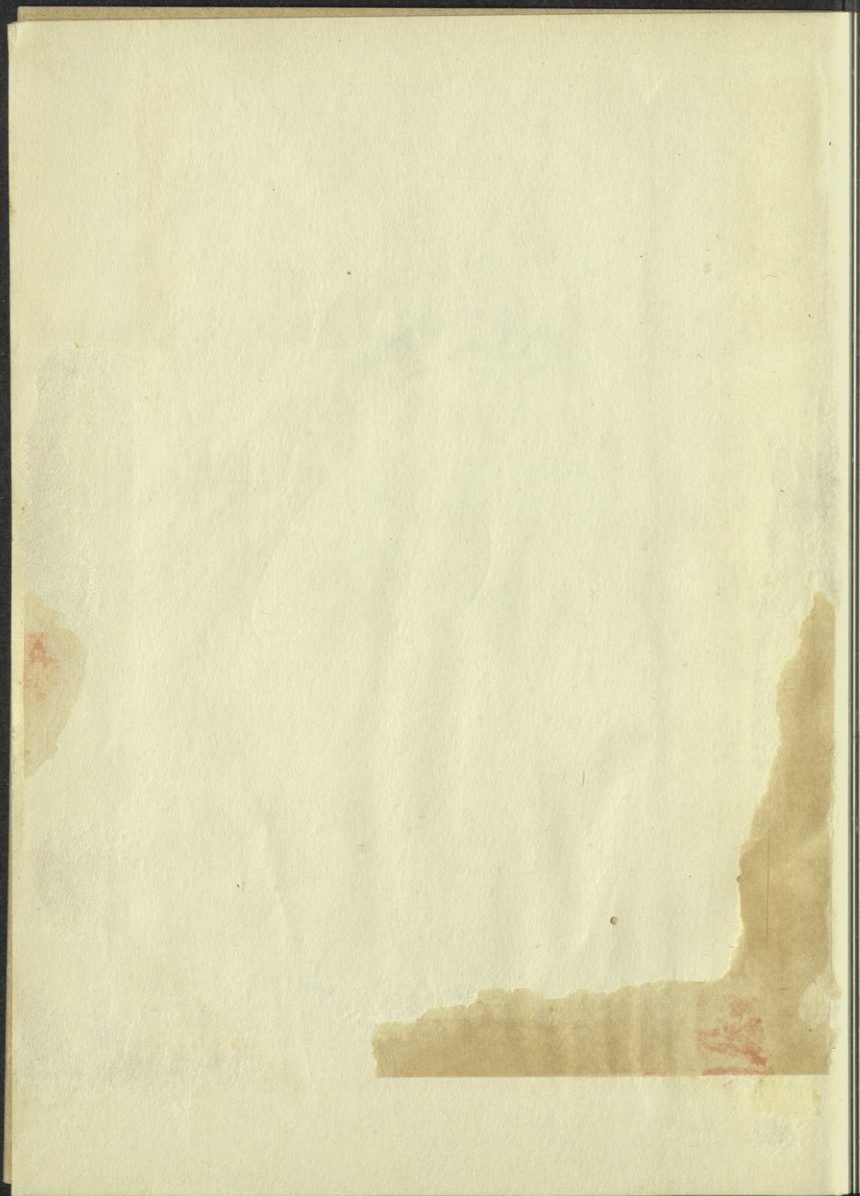
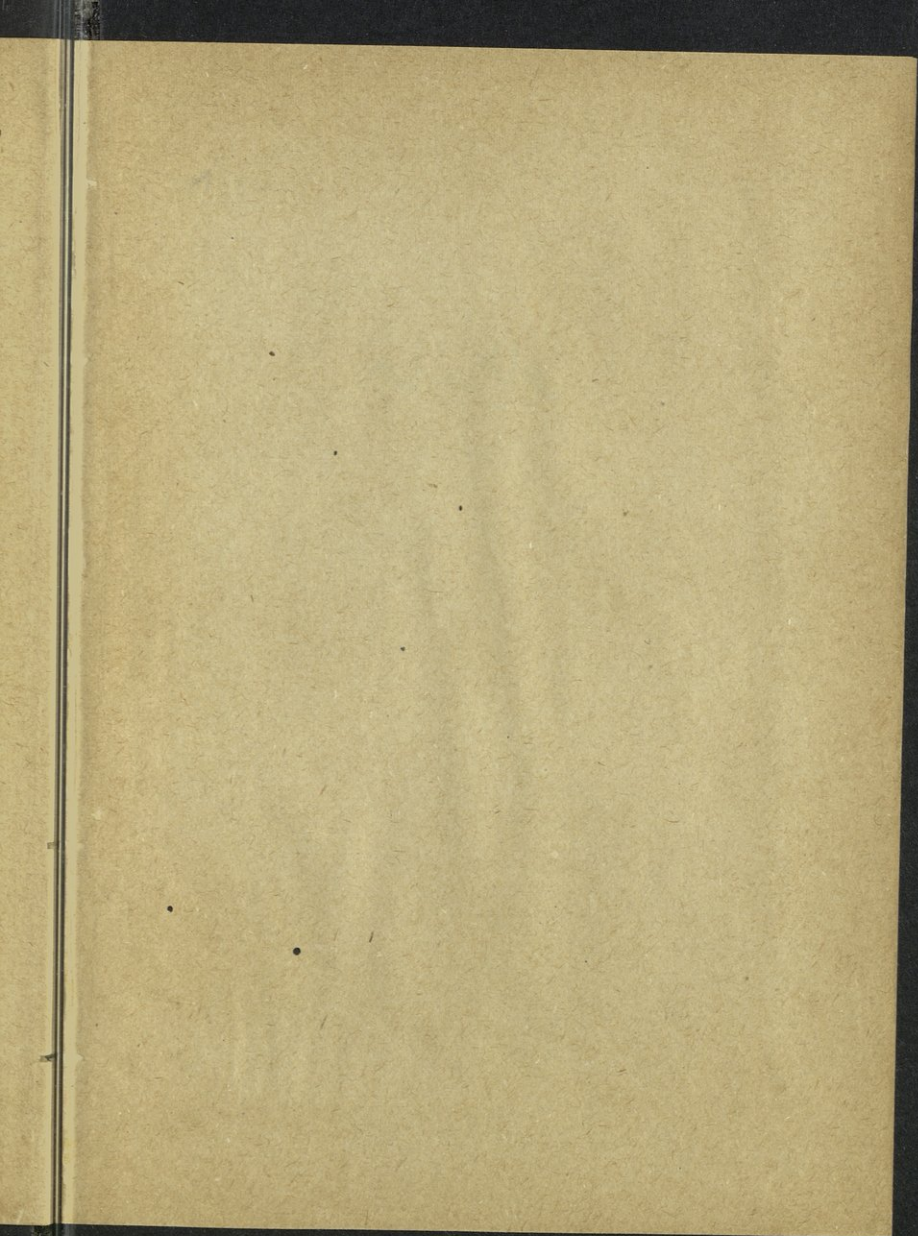


محمود

پیر اندیلو









858
P667Yh, A
محمدين حسونة

بیراندیللو

۷۹

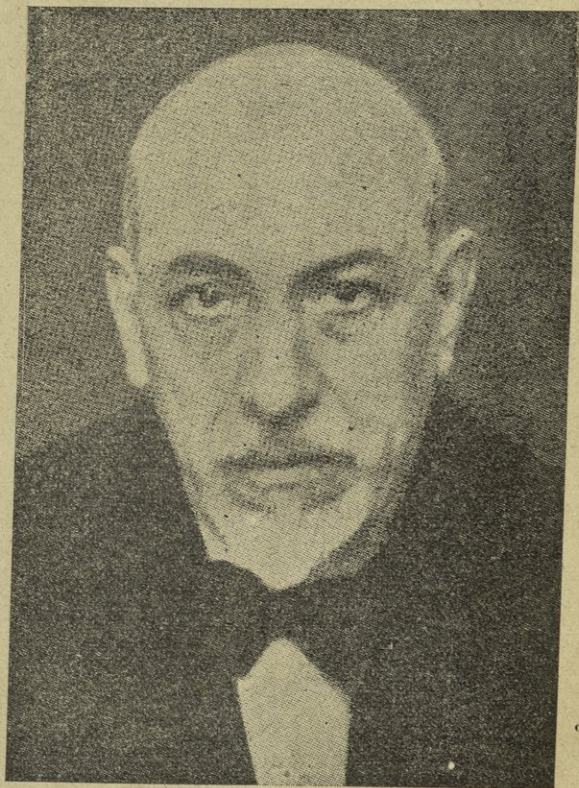
اقرا

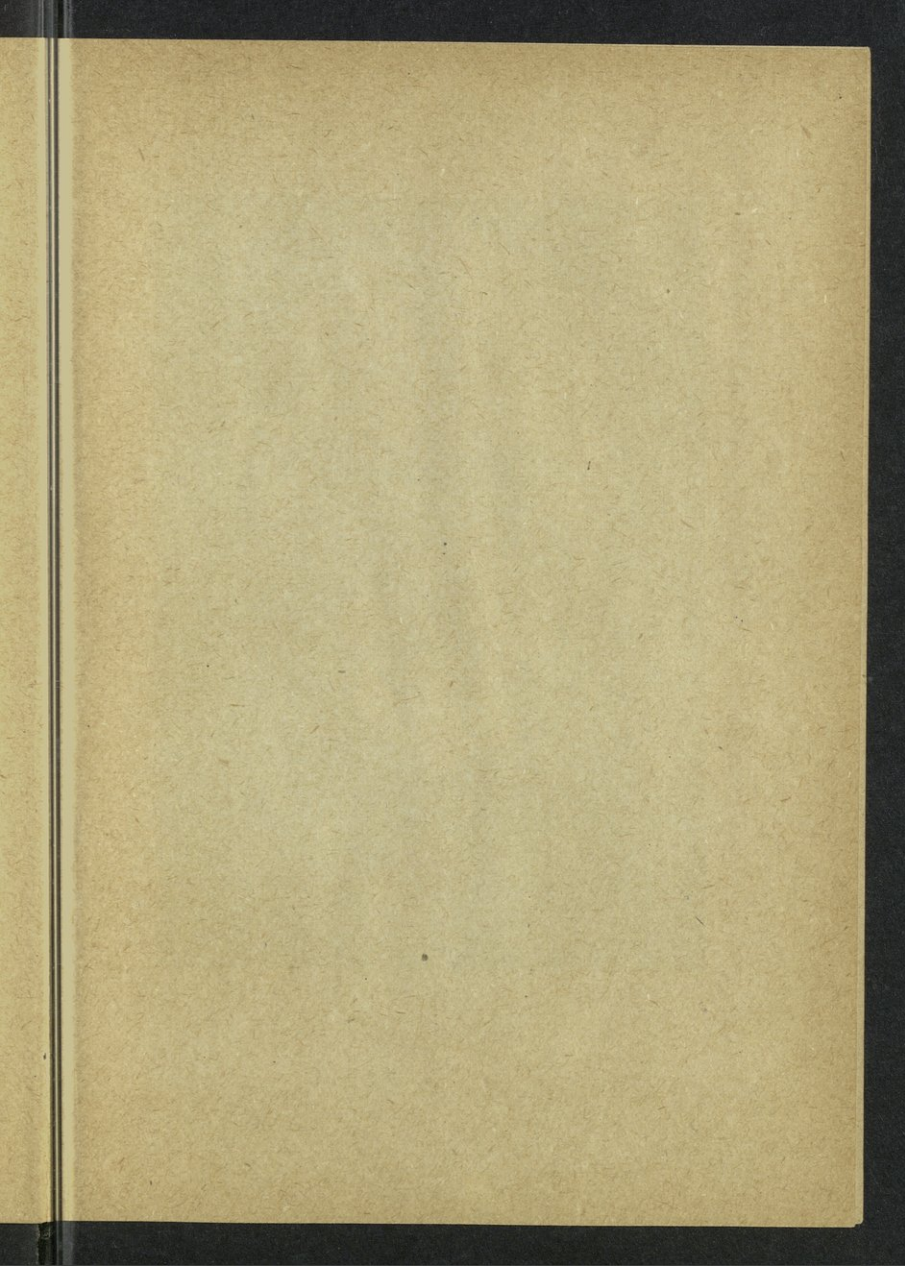
دارالعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٧٩ — يونية سنة ١٩٤٩



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بمصر





بين الطفولة والصبا

فى ذات مساء كان الفيلسوف الساخر فولتير ، يستحث هممة الممثلة « دوميسينيل » لتحسن القيام بدورها فى مسرحية كتبها بعنوان « ميروب » فأجابته : أن لا بد للشيطان أن يلبس جسدها لكي تنجح فى دورها ، فرد عليها فى رزانة قاطعة وقال : « إن الشيطان لا بد أن يلبس جسد المرء لكي ينجح فى أى فن » .

راقت هذه العبارة شابا إيطاليا فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر ، وكان قد شرع يشق بقلمه طريقه إلى عالم الأدب ، فخطها حكمة ووضعها داخل إطار على مكتبه ، ولبث يعمل بوحيا فى أطوار حياته كافة ، حتى كان الفوز حليفه .

والحق أن الشيطان كان فى جسد ذلك الكاتب الإيطالى « لويجي بيراندللو » فكان الذكاء النادر الذى يحيل الغضب ضحكاً واللهب نوراً ، وكان ألمع شخصية فى سماء الأدب وأقدر كاتب مسرحى فى هذا العصر ، وكان فوق هذا وذاك ، ذا الإنتاج الحصب المنقطع النظير ، حتى أخرج نحو مائة عمل

أدبي دسم ، ما بين رواية وقصة ودرامة وديوان شعر ، كل صحيفة
منها مشرقة إشراق النجم في سمائه ، فكانت بضاعته على حد
تعبيره « هي محصول فكره » .

وشخصية هذا الكاتب تعد مثالا حياً للمضطربين الذين
لا ينشدون الراحة إلا في حالة ثورة فكرية ، وقد أطلق عليه أحد
مريديه لقب « البلشفيكي العقلي » أى أنه صاحب مذهب
شيوعى متطرف بالنسبة للفكر المستقيم المنتظم .

* * *

انحدر لويجي ستيفانو بيراندللو من أسرة عريقة ذات تقاليد
راسخة ، واشتهر عنها أنها جمعت إلى وفرة الجاه البطولة السامية
والتضحية في سبيل الوطن .

ولد في ٢٨ يونية عام ١٨٦٧ في مدينة (بورث أمبيدوكل)
من مقاطعة « جرجنتى » بجزيرة صقلية ، وكان جده أندريا
من أعيان المقاطعة ، ومن المولعين بالأبحاث التاريخية المتعلقة
بحوض البحر الأبيض المتوسط ، وتطور شعوبه . وقد لقي حتفه
إذ أصيب بوباء الكوليرا الذى انتشر في صقلية عام ١٨٣٦ .

وكان والده « ستيفانو » محارباً في جيش جريبالدى ، ومن
الأبطال الذين ساعدوا على تخليص الجزيرة من سيطرة
« البربون » ، وكان خصماً عنيداً للجمعية السرية المعروفة

باسم « مافيا » ، وهى جمعية رهيبة ظلت كلمتها نافذة على الجزيرة وعلى سكانها بضعة قرون ، لكنه عرف كيف يتمرد عليها ، ويشق عصا الطاعة على زعمائها ، ويعتمد فى محاربتهم على قوة ساعده أكثر من ارتكانه إلى بندقيته أو سلاحه ، وقد ورث عن أبيه ثروة تقدر بمليونى ليرة ، فاتخذ مدينة جرجنتى مقاماً له ومركزاً لتجارته الواسعة النطاق فى الكبريت والاملاح ؛ ثم اقترن بسيدة مالطية تدعى « كاترينا » كان شقيقها من أقطاب المحامين فى الجزيرة ، فأنجبت له لويجى .

شب لويجى بين مهاد صقلية وجبالها وتشبع بعادات سكانها وتقاليدهم ، وقد كتب فى هذا الصدد مرة يقول : « أهلها هم أهلى ، أرضها شطر من كيانى ، فلماذا أفتش عن موضوعات خلف الأفق ما دام فى وسعى أن أفتح عينى على مآس وفواجع تقع فى كل ساعة بين أيدينا ؟ إنه لمن العار أن لا نكون فى جانب الصدق ، وأن لا نتوفر على رسم الحياة التى نعيش داخل نطاقها ، ولو كانت ضئيلة تافهة . أما التعبير عن الإحساسات الخارجة عن دائرة شعورنا الحقيقى فهو السقوط الفنى البشع . إننى أكتب اليوم لنفسى وبحكم شعورى الخاص ، أما توقع النجاح فأمره متروك للمستقبل » .

عرفت صقلية باسم « جزيرة الجحيم » ، وكان أول من أطلق عليها هذا الاسم الشاعر « دانتي أليجيرى » ، فقد شهدت هذه الجزيرة التى يلتقى فيها الشرق بالغرب ، أعظم المعارك البحرية التى عرفت فى التاريخ القديم ، إذ تعاقب عليها الإغريق ولعبوا على مسرحها أسمى أدوار البطولة والمخاطرة ، وكانت جبالها وصخورها وبراكينها مثار خيال خصب ومنبع أساطير عب منه رهط من كتابهم وشعرائهم. ثم تتابع عليها البيزانطيون والقرطاجنيون والجرمان والعرب ؛ وعلى أرضها امتزجت دماء المسلمين بدماء أعدائهم الروم ، وتصافى الشعبان على أخوة السلاح.

وقد بسط العرب سلطانهم على صقلية والمقاطعات الجنوبية من إيطاليا فترة لا تقل عن قرنين ، ازدهرت فى خلالها ظلال الحرية وأينعت الثقافة وأصبحت الجزيرة مركزاً من مراكز العلم ، ولا سيما أيام دولة « بنى كلب » ، وسادها الأمن والرخاء وعدالة شريعة الإسلام ، وخرجت من الجزيرة كوكبة من فحول الشعراء والكتاب الذين تركوا أثراً عميقاً فى الأدب الإيطالى عامة والشعبى منه خاصة .

وبعد أن غزا « النورمنديون » الجزيرة وانتزعوها من أيدي العرب ، ظلت اللغة العربية هى السائدة ، وكذلك العادات والأخلاق والأساطير ؛ وظل ملوك المسيحية يشجعون علماء

العرب ، وأقبل بعضهم على تعلم العربية وصار يتكلمها في طلاقة .

وكان فردريك الكبير ينظم بالعربية مقطوعات شعرية ممتعة ، وكذلك سلفستر الثاني بابا رومية ، فقد نظم قصائد عربية لها أوزانها وقوافيها في خرائب الكوليزه وعند نصب « تراجان » . أما الملك روجر النورماندى فقد جمع في بلاطه رهطاً من علماء العرب وشعراهم ليتخذهم ذريعة يبعث بها ما كان للأدب العربي من زهو وأبهة كانت في ذلك العصر قبلة أنظار النهضة الأدبية في العالم أجمع .

والواقع أن ظل العرب السياسى تقلص عن صقلية ودالت دولتهم ، ولكن أثرهم الثقافى ظل باقياً ، وبقيت العربية اللغة الرسمية للإدارة والتجارة والثقافة . وفي هذه البقعة الفريدة من الأرض التقى علماء الإفرنج والروم والعرب على قدم المساواة وأسهموا في بناء نهضة ثقافية أينعت ثمارها ، وظل جنوب إيطاليا أرقى جهات أوروبا بأسرها ، ومنه انتشرت الفلسفة وعلوم الطب والفلك والفنون إلى جميع أنحاء العالم ، ولا يسع من يحوب صقلية إلا أن يلاحظ آثار العرب في البناء والعمارة وفي عادات القوم وأزيائهم .

وقد ظلت صقلية على مر القرون ، مهبط الأدب الرفيع

العالي ومثار وحي للشعراء والكتاب ، واحتلت نفس المكانة التي تحتلها باريس في الأدب الفرنسي . ولا عجب فإن جميع الحركات الأدبية صدرت عن هذه الجزيرة ، ومعظم المذاهب التي عرفها الأدب الإيطالي كان مبعثه أدباء الجزيرة .

ومن السهل أن نلمح ظل الحياة الصقلية واضحاً عميقاً في أعمال طائفة من الشعراء والقصاصين وكتاب الدراما ، وفي مقدمتهم « كاردوتشي » الذي أسس مدرسة أدبية راقية قد لا نعرف لها مثيلاً في الآداب الإيطالية ، وجيوفاني فرجا ، وكابوانا صاحب المذهب الطبيعي في القصة ، وماريو بوتشي وشيكونياني ، وماسيمو بونتمبلي ، وغيرهم من الذين خلقوا الحركة المعروفة في الأدب باسم « نوفيتشتو » .

ونرى من الخير أن لا نهمل الأثر البارز الذي غرسته صقلية في عقلية بيراندللو وفي مزاجه الفني ، فقد تلقى وهو في مطلع شبابه تاريخ العرب ، وطالع قصصهم وتعلق بما ترجم إليه من حكايات ألف ليلة ، وشغف بأشعار الحماسة والألوان الزاهية البراقة التي خلفها العرب في الأدب الشعبي الإيطالي . ونرى بيراندللو عند ما يصف صقلية وأهلها يكون أصرم وأوفر طابعاً من « فرجا » و « كابوانا » . وطريقته الخاصة هي أن يختار شخصية غير طبيعية ، وفي الغالب تكون مشوهة ، وعند ما

يصف هذه الشخصية بشكلها المضحك ينفخ الحياة فيها فجأة ويكشف عن حقيقتها . وفي وسع القارئ العادى أن يشعر بالأساس الصقل الذى يشيد عليه بيراندلو شخصياته ، ذلك الأساس الذى يدفعنا إلى الإعجاب بمقدرة هذا الكاتب وإفراطه فى الحب لمسقط رأسه ، وهذه هى الوطنية المستترة .

* * *

كان ستيفانو بيراندلو يود أن يرى من صغيره لويجي تاجراً من تجار « جرجنى » . وتمشياً مع هذه الرغبة وتحقيقاً لها ألحقه بمدرسة التجارة ، ولكن نفس الصغير طالما تاقَت إلى دراسة الأدب والتفرغ لنظم الشعر ، فما إن بلغ الخامسة عشرة من عمره حتى صحب أمه إلى « بالرمو » ليكمل دراسته . وفى سن السادسة عشرة أخذ يشدو بالشعر ، وأخرج أول أثر أدبى له ، وهو مجموعة من الشعر الوجدانى بعنوان « جيو كنده الحزينة » شابهت فى مجموعها أشعار « كاردوتشى » من حيث القالب ، وإن كانت الموضوعات التى طرقتها بيراندلو أعم رومانتيكية ، فقد كان بيراندلو الشاب يفضل أن يقف بجانب العلماء والديمقراطيين الذين انحازوا إلى صفوف العمال ، فيمكن لذلك أن يسمى ديوان « جيو كنده الحزينة » بالتقويم الشهرى لبيراندلو الصغير . وفى الثامنة عشرة نزع إلى روما للالتحاق

بكلية الآداب بالجامعة حيث اختلف مع أساتذته بحضه على نظم ثورية في التعليم . ولاح له أن يشخص إلى ألمانيا ليدرس برنامجاً تكميلاً ، فسافر إليها بمساعدة صديقه موناكي وقيد اسمه في جامعة « بون » فمكث بها عامين ونصف عام ، وهناك نظم مجموعات من الأناشيد نشرها بعنوان « في عيد الفصح » حذا فيها حذو شعراء الإنسانية ومنهم « جيته » الذي تتلمذ لطريقته في النظم ، وتوفر على نقل كتابه الخالد « مرآتي رومانية » إلى لغة مواطنيه ، وعلى أثر تقديمه رسالة بالألمانية عن « لهجة جرجنتي » منحته جامعة بون لقب دكتور في الأدب والفلسفة ، واستطاع أن يحصل على منصب مدرس للغة الإيطالية بالجامعة ، ولكن ميله إلى حياة النور دفعته إلى الهرب من جو ألمانيا الملبد بالغيوم والضباب الكثيف إلى إيطاليا المشرقة وجو الجنوب الصحو ، فعاد إلى صقلية وقد نال حظاً وافراً في الأدب الألماني ، وحصل على معلومات كافية تؤهله لأن يشغل مركزاً رفيعاً في جامعات إيطاليا .

عاد بيراندللو إلى جرجنتي وحاول أن يحترف التجارة احتراماً لرغبة والده ، لكنه لم يلبث أن هجر ميدانها الحر ، وكان قد لقي القصصى الصقلى لويجي كابوانا ، فحبب إليه الاشتغال بالأدب ، لأن التجارة ليست بالميدان الذى يسع آماله الجسام

ويستغل فيه مواهبه الفذة .

وفي ذلك الحين كان بيراندللو قد انصرف إلى قرض الشعر ونشر عدة دواوين بلغ مجموعها ستة ، حاول أن يقلد فيها طريقة كاردوتشى من حيث القالب والقوافى والأوزان ، ولكن الموضوعات التى كان يطرقها كانت مختلفة ، فمنها ما كان يحمل طابع الجمال الحزين الذى يفيض على أطراف صقلية ، وبعضها سجل يومى لذكريات مراهقته وشبابه . بيد أنه سرعان ما تحول عن الشعر ، وقد فسر هو نفسه سر إخفاقه كشاعر فقال : إن مستقبله هو أن يخرج على مألوف الأناشيد العالمية ، وإن طبيعته الخاصة حتى فى الفكاهة ، هذه الميزة التى نشأت من التوافق بين الضحك والدموع كانت مزيجاً متناثراً بدون أن يكون منسجماً ، « فالعذارى التسع » المبتسمات من سفوح البرناس أخذت تدبل خلف تلك الفكاهة البارزة وولت الأدبار .

وذهب بيراندللو إلى روما ليعيش فى مسكن متواضع بشارع اجريبا ، وهو الذى أقام فيه معظم أيام حياته ، وصار عضواً فى جماعة « شينا كولو » الأدبية التى ضمت بين أعضائها مؤلفين نابهين . وفى ذلك الحين كان النجم الساطع فى سماء الأدب ، هو نجم الشاعر « جبرائيل دانتزيو » الذى يبشر بنظرية السوبرمان « لنيشه » ، وكان جيوفانى بايى محور الحياة

الفكرية في إيطاليا . على أن بيراندللو كان طيلة حياته خصماً
لدوداً لدانزيو ، فقد رفض باحتقار أن يقبل آراء نيتشه ،
وكذلك أبدى احتقاره للأثواب الفخمة والانسجومات الناعمة
التي تميز بها الشاعر الدرامي المغرق في اللذة . ولقد تجنب تماماً
البلاغة البيانية التي يبشر بها دانزيو كما يتجنب الطاعون
البشرى ، أما حركة بايني فلم ترق بيراندللو ، وهو الدارس
لمذاهب المدرسة الألمانية في الفلسفة ، وكان أن نصب قلمه
لهدم هذه العقيدة التي كادت ترسخ في أذهان الشباب موجهاً
أنظارهم إلى كنوز فكرية أخرى .

مفرق الطريق

عند ما أراد بيرانداللو أن يحترف الأدب ويخصص جهوده بخدمته ورفع شأنه ، كان الأدب الإيطالي إنما هو مدارس فردية ومذاهب متناثرة هنا وهناك ، فلم يتمخض الجيل عن مواهب فذة ولا عبقرية تسمه بميسمها الخاص ، لأنه كان عصر فوضى ، لا مقاييس تحده ولا معالم يتميز بها .

كان جبرائيل دانتيو يقف بمفرده كشاعر إيطاليا الوحيد الباقي على الدهر بعد دانتي وليوباردى وكاردوتشى ، وكانت الموسيقى التى بعثها « شاعر بسكارا » قد جاءت إلى سمع العالم بنغم لا عهد لها به ، ودخلت على الآذان بعدوبة لم تشنف بمثله منذ أجيال ، ولكن فن دانتيو الروائى كان قد شاخ ، وكانت تغمر جوه عناصر الاستمتاع والتحليق فى أجواء الخيال ، وكانوا يعيبن عليه أنه يخضع فنه لسلطان العاطفة أكثر مما يخضعه لسلطان العقل . وكانت معظم روايات كابوانا قد علاها الغبار فوق الرفوف التى تتكدس عليها الكتب القديمة ، ولكنه كان لا يزال يلفت الأنظار ، فإن مناداته بحركته الجديدة فى النقد

جعلت الأعناق تتطلع إليه . كان من رأيه أن الفن في تطوره يجب أن يمتزج بالعلم ، وكان يسمى هذه النزعة « الفريزم » التي تعد أساس الحركة التطلعية . وقد كانت هذه النزعة في نظره صديقة لروح الزمن ، وكان من رأيه أيضاً أن الفن الحاضر مع احتفاظه بروحه الأصيلة ينبغي أن يخضع لكل ضروب العلم وللطرق التحليلية الجديدة ، ثم عاد فكرر قائلاً : إن الفن يجب أن يظل شيئاً غير شخصي ، ويجب على الفنان أن يخضع تماماً لعمله ، ونصح بالرجوع إلى الوثائق الإنسانية لبنى منها من جديد الهيكل السيكلوجي الحقيقي ، وإنا لنلاحظ في روايات كابوانا خيال العالم الطبيعي وهو يشرح بدقة شخصيات الآخرين ويدرسهم في تأمل وبرود .

وعند ما ظهرت « المدرسة الإقليمية » جعلت تلتهم خصائصها ومميزاتها في فن جيوفاني فرجا ، وكانت تميل بعض الشيء إلى الرواية الهادئة التي تتغذى من ذكريات خاصة ، خالية من روح التكلف ، وإلى الحياة الفطرية الساذجة ، والعودة إلى أحضان الطبيعة، مع إحياء الطابع القومي في الأدب . وإذا اعتبرنا أن المذاهب الأدبية في إيطاليا تقوم على الوجدانيات المبالغ فيها ، والخيال الشعري ، والوطنية الصارخة المتأججة ، أمكننا أن نوازن بين التراث الروائي القديم وبين الفن

الذى ابتدعه فرجا ، ذلك الفن الذى يقوم على الحس وعلى
المشاهدة الملموسة مع تصوير العادات والأخلاق والحوادث
التاريخية البارزة . إن الروايات الأولى من مؤلفات فرجا ليس
فيها سوى ظلال خفيفة من مناظر صقلية ، كانت تلك المناظر
تبدو فى جو تشيع فيه ألوان الترف ، وكانت بطلاته نساء
جميلات خطيرات تدفع نزواتهن بالمعجبين إلى عواطف صاخبة
مجنونة . فى تلك السنين كان فرجا يعيش فى قطنية وميلانو
وفلورنسة ، وكان يحتسى خمر مباحج المدن الكبرى ، وكان
فرجا الريفى قد بهرت عينيه مناظر الترف وغراميات المسرح
والمبارزات ، وكانت فيه تلك النزعة الدخيلة فى نفوس الأصحاء
حين يجرون بطريقة مضادة مع كل غريب ومريض ،
ولكنه تغير تغيراً واضحاً بسبب النزعة الواقعية النقدية فى عصره ،
وعلى حد قول جروسى : كان يختبئ تحت القشرة المكونة من
عادات المدن القديمة وقصص الحب فى العالم المترف ،
ذكريات حادة عن مواطن الريف التى قضى فيها أويقات
شبابه . وكان أثر ماسيمو بونتمبلى واضحاً فى الحركة المعروفة
باسم « نوفيتشيتو » ، وكان الغرض منها مقاومة المبالغة فى
التحليل المادى والقضاء على أساليب المدرسة الإقليمية ، وقد
بدأ بونتمبلى عصر الخيال الذى يقضى على الحقيقة ويقود

القارئ إلى فكرة المجهول غير المنتظر . وإن مقدرة هذا الكاتب وابتكاراته أصيلة على الرغم من أنها لم تظهر متعمدة ، ففي رواياته يتبدى من فكرة منطقية ولكنها غير حقيقية في أساسها ، ثم يتوسع في هذه الفكرة معتمداً على المنطق وحده ، كما يفعل الرياضي ، فيصل بذلك إلى نتائج باهرة غير منتظرة ، فهي تارة مسلية وطوراً مضحكة تخفى وراءها حزناً عميقاً .

ثم ظهرت تلك الروح المحمومة في الأدب والفن المعروفة باسم « الحركة التطلعية - أو - الاستقبالية » ، وقد غذاها بيراندللو منذ فجر حياته بروحه ودمه ، ثم حدا حذوه مارييتي فجعل يطبل بنظرياته عن الأدب والموسيقى والتصوير والشعر ، ويبشر بنظام جديد أساسه قطيعة الماضي والحاضر والتطلع إلى المستقبل ، ونقل الأدب والفن من محيط الوجدان إلى عالم الميكانيكيات وكل ما يلتصق بعالم التفوق المادى بأوثق الصلات . ولا بد من أن نعود إلى الوراء قليلاً لنعرف مصادر

التطلعيين ، فهم يقولون إنها مستمدة من نظرية السوبرمان وتطبيقها عن طريق « واجنر » ، على أن أتباع نيتشة أمثال « إبسن » لم يفهموا تماماً رسالة أستاذهم ولم يعرفوا عن نيتشة غير اعتذار عن المادية الضخمة عند الرأسمالى الكبير ، وعند واجنر لم يكن إصغاؤهم في غير الأوقات التي نامت فيها عبقريته ، ولم

يكن لهذه الحركة من أثر سوى الألمان الضخمة التي ملأت
الإحساس طنطنة وجعلت الفن في السنوات الأولى للقرن الحالى
مقرونة بهذا الطابع الفريد ، أما إبسن الذى كان يصور لنا
البطل يصارع قدراً لا يرحم فقد صار فى نظر الكثيرين خالق
صور غامضة مبهمه ، وقليلون هم الذين فهموا أن طريقة العمالق
النرويجي لم تكن إلا وصفاً للواقع . والوحيد الذى دلل على أن
إبسن أعظم واقعى فى العصر الحديث هو « برنارد شو » عند ما
قال : إنى لأفخر إذا دعوت إبسن من سكان الضواحي ، أى
الذين يعيشون على هوامش المدينة ، لأن التجديد فى الضواحي
هو المدنية الحديثة ، والحياة العصرية فى المنازل لا يمكن أن
تمثل عن طريق بطل أرستقراطى ولا عن طريق خادمة
تتلقى الإكراميات أو القبل من الزائرين . وقد طغت الحركة
التطلعية وتجاوزت حدود إيطاليا إلى غيرها من البلاد ؛ وهى فى
كل بلد تتسمى بأسماء مختلفة مثل : التكعيبية ، والداجية ،
والخلاقية ، والتلقائية . وكان كل بلد يطبق عليها وصفاً أو لفظاً
جديداً ، ولكنها على كل حال كانت فروعاً من شجرة واحدة
مصدرها إيطاليا ، ولسان حالها صحيفة « لاشيربا » التى يحررها
« بابيني » و « سوفيتشى » . أما « مارينتى » فلم يكتب إلا
بالفرنسية ، وفى عهده صدرت مجموعة من الأدب التطلعى فى

كثييات ذات أغلفة حمراء تحمل راية الثورة ضد التقاليد الأدبية
وتشيد بتأليه المدافع والهجوم بالحرب .

والتطليعيون خصوم الأداء يريدون بنظرياتهم أن يلغوا الماضي ،
وحركتهم ليست مجرد فكرة خاطفة ولا متقلبة ولا مجرد كلام ،
وإنما هي جو عاطفي ، وهي خاتمة التدهور ، أى التعبير الأخير
للرومانتيكية وهي تحتضر . هذا هو الجانب السلبي للمسألة ،
فحين كانت العصور الماضية ، وبخاصة عصر الحركة الطبيعية ،
تضاد الرومانتيكية ، كان أدباء مثل بيراندللو يريدون أن يروا
بأعينهم انهيار هذا البناء ليشيدوا على أنقاضه صرحاً جديداً
للحياة أو يكونوا من ترابه مظهرًا جديداً للأشياء .

وقبل أن يبرز « المسرح التطليعى » إلى عالم الوجود ، كان
المضحك فى المسرح نوعاً من الفكاهة الحرة ابتدعها القدماء
لملء خانات خاصة ، وكانوا يضعون أشكالاً مضحكة مشوهة
إما بفعل الطبيعة وإما بقصد من الفنان ؛ والغرض من هذه
الأشكال المضحكة المبالغة والإغراق فى الغرابة ، كأن يرسموا
مثلاً حصاناً له أرجل من أوراق الشجر . وكان المؤلف المقتدر
هو من يأتى بالغريب الشاذ ، وعلى هذا المقياس يزنون كفاءته .

فلما ظهر « رودلفو دانجيلس » بمسرحيته « سيكولوجية
الآلات » عدت هذه المسرحية مميزاً للحركة الجديدة التى

انتشرت في إيطاليا مبتدئة من ميلانو التي كانت تخفق بنبض
الآلات ، ثم جاء « مارينى » بمسرحيته « طبله النار » ، وكانت
هذه الحركة سداها المبالغة للفكرة الأساسية التي ابتدعت
المضحك في المسرح ، على أنها ظلت متراوحة بين القديم
والجديد . والحقيقة أننا إذا نظرنا إلى مارينى وأتباعه وجدنا
المظاهر الخارجية للحركة فقط ، إذ أن السرعة الطبيعية ليست
هى التي تغير وجه الحياة الحديثة ، ولكن السرعة المثالية أى
النقد ، فإن الحركة التطوعية هى فى جوهرها نقد موجه للحياة
الحديثة والفن الحديث ، ولا تتردد فى أن تجعل فلسفتها مضادة
لفلسفة الماضى . وهذه الفلسفة الحديثة هى التي يعبرون عنها
بالنشوة الرومانتيكية للفنان الذى لا يعرف دنياه سواه ، وقد
يكون هذا الفنان فى نظر البعض أحد أحفاد « دون كيشوت »
الذى كان يرى أشباحاً عمالقة فى حين يرى غيره الطواحين ، وقد
يكون « مبرينو » الذى كان يرى الخوذة فى حين لا يرى غيره
سوى حوض الحلاق ، ونكون هنا قد انتقلنا إلى نقاط بعيدة عن
المشكلات التي واجهت مؤلفى الدراما فى القرن الماضى ؛ ففي
ذلك الحين كان المسرح مضطجعا على مهد هادئ لا تشغله
سوى مسائل محددة المعالم من الاجتماع والخلق ، وقلما كان
المؤلف يخرج عن الدائرة العتيقة للمجتمع المنظم ، أما الآن

فكل شيء فوضى ، إذ هدم الإنسان المعتقدات القديمة الثابتة ، وصار عقله ممزقاً بين أفكار عاطفية متنازعة ، وفات الوقت الذى يمكنه أن ينظر فيه باطمئنان كما نظر أبوه وجده إلى كل مسألة فوجد لها حدين أو بعدين .

والعقل الحديث يمكن أن يقارن فى ضباب ، حاول كل كاتب أن يميز منه شيئاً واضحاً فأخفق ، ولكن بيراندللو هو الكاتب الوحيد الذى أمكنه أن يميز أشياء ثمينة فى هذا الضباب ، مجتهداً فى تحديد المسائل الحديثة ، فقد استطاع أن يمزج بين أفكار المسرح المضحك والمسرح التطلعى ، وكون من هذا الاندماج قوة بسطت سيطرتها على المسرح الأوروبى ، بل الأصح على المسرح العالمى بأسره ؛ ورأينا فى كل بلد موت البورجوازية يتجلى فى الرواية المنظمة المرتبة ، وفيها بقايا رومانتيكية ؛ ورأينا قيام الدراما النقدية التى تعبر عن عقل نشيط مرن .

وبيراندللو هو أهم أستاذ فى الحركة التطلعية وأكثر روادها جدّاً ، وقد صار مسرحه منبراً يخطب من فوقه الممثل على جثة الأدب القديم . وإن دراماته بما فيها من أقنعة مضحكة تخفى قلوباً دامية كانت نذراً للعالم ، وهذا يذكرنا بالألفاظ التى فاه بها العبد لمولاه ، أحد ملوك الشرق الأقدمين ، وهو يأكل :

« تذكر يا مولاي أنك لا بد أن تموت » ، فييرانداللو هو الذى أمسك بذلك الجرس المنذر بموت الدراماة القديمة ، ولكننا نخطئ إذا اعتقدنا أنه الكاتب المسرحى الوحيد الممثل للعصر الحاضر ، فقبل أن يكون الجمهور كله متأثراً به ، سبقته مدرسة شادت شخصياتها على السخرية ، وكانوا يسمون مسرحهم « المسرح المضحك » .

فنه الروائي

نحن نفهم بيراندالو على أنه كاتب مسرحي فقط . أما من وجهة أنه قاصّ موهوب فلا يزال مجهولاً ، على الرغم مما أنتجه من قصص ممتازة تدل على قوة الملاحظة وخلق الشخصيات الناضجة التي تطابق الواقع ، وما امتاز به من تحليل الشخصية ورد العناصر إلى أصولها .

وهو من هذه الناحية من الأدباء القلائل الذين تأثروا إلى مدى بعيد بنظريات العلامة النفساني سيجموند فرويد ، وقد استطاع أن يجسم هذه النظريات ويفسرها في رواياته التي تدور حول رسم وتصوير العواطف الخفية التي تسبح في العقل الباطن ، وتطفو الآونة بعد الأخرى فوق سطح العقل الواعي فتصطدم بالتقاليد الاجتماعية والنواميس الطبيعية .

وبيراندالو — في عرف بعض النقدة — رمز للعالم الحديث . فهو يشعر شعوراً عميقاً بالزمن الحاضر المضطرب بسبب الحوادث والماديات اللاصقة به . وإذا أتيح لك أن تشاهد مسرحية من مسرحياته لتقارنها بقصصه شعرت من فورك

باضطراب وعدم استقرار . بل لما وجدت شيئاً تتعلق به لتنجو بنفسك . فكأنك في بحر مضطرب نائر لا يهدأ . وكل بطل من أبطاله ليس سوى « هملت » جديد ، لا يعرف معنى للهدوء والاستقرار . وكلما تعمق في الحياة ازداد بلبلة واضطراباً ، فهو أمام الحياة في حالة ذعر وخوف وهلع .

يدور فن بيراندلو الروائي حول الشعور بالحياة . ويؤدي إلى فكرة مبهمة عامة . إذا ما تطورت برزت أمامها عقبات لصدها عن اتخاذ طريقها الطبيعي . وأهم هذه العقبات ما يتعلق بالدين والأخلاق والقوانين ، وما يجري للإنسان في حياته العادية .

أما أدبه فيتركز على نظريات فلسفية يعبر عنها بلسان أبطاله . وليس الأدب في نظره سوى وسيلة للحياة في الخيال وللفرار من المتاعب المادية . فإذا فكر في موضوع رواية استسلم إليها وأحس أنه بعيد عن وسطه الحقيقي ليخلق في الجو المصطنع الذي يبتكره خياله .

أذكر أنني قرأت لبيراندلو حديثاً يقول فيه ما معناه : إنه لم يقع له أن أبدع في رسم شخصية رجل أو امرأة ، كائنة ما كانت هذه الشخصية ، لمجرد اللذة في تصويرها . ولا أن حل حادثاً معيناً بالذات ، بالغاً ما بلغ هذا الحادث من

الحزن أو الفرح، لنفس اللذة التي ينالها من وراء تحليلها .
ولا وصف مشهداً من المشاهد لمجرد المتعة في الوصف . فهناك
كتاب يشعرون بالطمأنينة الروحية تتدفق حولهم من أجل إشباع
عاطفتهم في هذا النوع من الكتابة .

وهؤلاء الكتاب ينحون بطبعهم منحى « المؤرخين » في فهمهم ،
ولكن هناك كتاب لا يكتفون بلذة السرد والوصف ، وإنما
يحسون بحاجة أقوى وأعمق ، فلا يضعون في رواياتهم الأشخاص
والحوادث والمشاهد ما لم تضمّر شعوراً خاصاً نحو الحياة ،
شعوراً يكسبها قيمة إنسانية كبيرة .

وهؤلاء الكتاب هم « الفلاسفة » ، ومن سوء الحظ أنه يعد
نفسه في جملتهم !

إذن فهذا الكاتب جبار الذهن ليس من نوع الروائيين
الذين يؤمنون بتصوير الواقع وحده ، ولا من طبقة الشعراء
الذين يتغنون بجمال الكون ونشيد الحياة ، وليس من فئة
« الأخلاقيين » الذين يرقون المناير ليمطرونا بوابل من المواعظ
والعبر . وإنما هو ينظر إلى الأشخاص وإلى الحوادث وإلى
الأشياء نظرة عميقة ، تتغلغل إلى بواطن الأمور . فأبطاله أرواح
تغدو وتروح ، وأفكار تنتقل وتبتدع أجل الأعمال . وهل
الإنسان في عرفه سوى كتلة من الغرائز وحزمة من الإرادة

الضعيفة المتزعزعة قبل أن يصبح « شيئاً » له مكانته الاجتماعية ووضعيته القانونية ؟ حسب الإنسان عنده أنه يهتم بشهوة الطعام قبل أن يشبع غريزته البهيمية ، ويعالج معضلات الحياة بنفس الحماسة التي يتناول بها قضايا المجتمع ، يتساءل عن حرите الفردية قبل أن يفكر في الدفاع عن عقيدته السياسية ، ويشكو من ظلم الأفكار أكثر مما يشكو جبروت الحكام وطغيان الجبابرة .

ما هي الحياة ؟ حقيقة أم وهم أم خيال ؟ ! يقظة أم حلم ؟ ! خداع أم قناع ؟ ! وما الفرق بين حالة وأخرى ؟ ! أفلا يكون الوهم هو الحقيقة المجردة في نظر صاحبه ؟ ! أفلا تنقلب اليقظة إلى سلسلة أحلام وأمانى خادعة ؟ ! أواه من هذا النقاب الخيف ؟ ! نحن نحيا في هذا القناع الأبدى ، بين القلق والاضطراب ، نعيش في هذه الصورة المسوخة ، في هذا الفضاء المحدود الرموز إليه « بالعالم » ، ونتحرك في جوانبه بخيوط غير مرئية كما تتحرك الدمى الخشبية بين أصابع الأطفال ، دون أن نفطن إلى حقيقة موقفنا ولا أن ندرك إلى أين المصير .

هل يحيا الإنسان ويحتاز مرحلة العمر بكل أيامها ولياليها أو أنه يقف على صورة جامدة ، كالساعة التي تقف عقاربها على أرقام معينة ، وهكذا إلى أن نصل إلى أدنى مراحل العمر .

إلى سن الشيخوخة القاتلة . وأخيراً هل يؤلف كل فرد منا كياناً خاصاً وفكراً مستقلاً ، أو أن أكثرنا يعيش كالقطيع تسيرها يد الراعى الغشيم ؟ ! إن بيراندللو نفسه يشرح كل هذه العضلات التى تقف حيارى حياها ، بين الشك والغموض ، حين يقول : « لا سيادة لنا مطلقاً على أفكارنا وعواطفنا ورغباتنا . وإننا لسنا سادة بشخصياتنا . بل إن هذه الشخصية تخضع غالباً لأحكام الكون ولجميع ضروب التأثيرات النفسية . وإنه ليس لنا كيان شخصى معين ، بل إن شخصيتنا تتبع أعمال غيرنا . فنحن نلعب الدور الذى تفرضه البيئة ، ويفرضه المجتمع . وإننا سوف ننتهى إلى حيث لا نعلم » .

ويخيل إلى أن هذا الكاتب يشبه من ناحيته الفلسفية عمر الحيام الذى كان ينادى بالقضاء والقدر ، وبأساس الكون ومحور نظامه هو الجبر والاضطرار . فالقدر فى نظر كل منهما أزل ، والقضاء أعمى ، ولسنا سوى آلات فى يد الدهر ، تحركنا كما تحرك الريح أغصان الشجر ، فليس لنا من إرادة ، ولا فى وسعنا أن نستقل بآرائنا ، وإنما نحن رخاخ فى رقعة شطرنج .

نرح بيراندللو إلى روما وأقام بضعة أشهر فى شبه عزلة ، متفرغاً لمعالجة الشعر وكتابة الأقاصيص . ثم اشترك فى تحرير

صحيفتى « كابتين فرا كاسا » و « فانفولا » . وبدأ اسمه يلفت الأنظار ، ولا سيما عند ما نشر باكورة إنتاجه القصصى ، وهى رواية « حب بلا هوى » . ونتيجةً للحظ الذى صادفته هذه الرواية أقبل على نشر روايته الثانية « عند ما كنت مجنوناً » . فروايته « مهازل الحياة والموت » . كانت مؤلفاته الأولى مشبعة بروح شعرى خلاب ، على الرغم من محاولته التخلص من هذا الطابع ، وصبغها بأسلوب فلسفى عميق . وفى نهاية السنوات العشر الأولى من حياته الأدبية (١٨٩٤) اقترن بأنطوانيت برتولانو ، وهى شابة ثرية من صقلية ، ولم يتعرف إلى عروسه قبل يوم عقد القران كالعادة التى كانت شائعة فى صقلية وقتئذ ، والتى يمكن أن نعتها من الآثار الاجتماعية التى خلفها العرب فى هذه البقعة من الأرض التى حكموها زهاء قرنين ونصف قرن . وقد تم هذا الزواج بإرشاد والده الذى كان فى حاجة قصوى إلى قيمة البائنة ليسدد كارثة مالية لحقت بتجارته . وكان السيد برتولانو — والد أنطوانيت — شريك ستيفانو بيرانداللو فى وقت من الأوقات فى مناجم للكبريت ، حتى بعد الزواج . أخذ شبح الكوارث المالية يهدد الزوجين ويقض مضجعهما ، فذهب الشقاق بينهما . وكانت نهاية الوالد فى تجارته وخسائره المتوالية الإفلاس التام . ثم طغى فيضان على مناجم الكبريت فأغرقها ،

ولم تستطع أنطوائيت أن تتحمل هذه الصدمة فأصيبت بالصرع ،
ولبت أشهراً بين الحياة والموت ، واضطر لويجي في أثناء مرضها
إلى البحث عن عمل يعيش منه ، وأخيراً وفق بمساعدة فريق من
أصدقائه إلى أن يشغل مركز محاضر للأدب الإيطالي في معهد
المعلمات العالي بروما .

وفي خلال فترة المتاعب والآلام التي اجتازها الزوجان ، أقبل
بيراندللو على نشر طائفة من الأقاصيص . وظل يتمتع بعطف
وتشجيع أصدقائه الذين حاولوا تخفيف متاعب الحياة عنه ،
وفي مقدمتهم أجيتو عضو الأكاديمية ، والشاعر جيوفاني شينا
مدير المجلة الأدبية المعروفة باسم « الأنتولوجي الجديدة » ، وهي
التي نشر على صفحاتها باكورة إنتاجه الروائي ، ثم إخوان ارفيتو
الذين نصحوه بأن يكتب للمسرح ، وإن كان لم يعر هذه
النصيحة جانباً إلا بعد عشرين عاماً . . .

بزغ نجم بيراندللو بعد نشره روايته « المرحوم ماتياس
باسكال » فكسفت شمسهُ أسماء الروائيين الذين عاصروه ، وأقبل
النقدة يتحدثون عن فنه الجديد ويولونه اهتمامهم . ويمكن أن
أذكر أن هذه الرواية ألهمت الروائي الروسي ليون تولستوى مؤلفه
المشهور « الرمة الحية » ، وكذلك ألهمت الكاتب الأمريكي أونيل
مسرحيته « الإمبراطور جون » . فإنه للمرة الأولى في التاريخ

تقوم الحياة بمجهود جبار للظهور عارية في شكلها الحقيقي ،
وتعيش عيشة نشيطة دون قيد ولا شرط ، إذ حاول المؤلف في
هذه الرواية أن يؤدي هذا الغرض على أحسن وجه ، فيعالج
الخيال والحقيقة معاً .

ما هي الأهمية التي اكتسبتها هذه الرواية حتى غدت ينبوعاً
يستقى منه فحول الكتاب موضوعات طريفة ، وحتى تطايرت
شهرتها خارج حدود إيطاليا .

إن فكرة هذه الرواية تدور حول شخصية رجل فقير طيب
القلب اسمه « ماتيئاس باسكال » ، تتخلل حياته سلسلة من
الآلام بسبب عمله الآلي كموظف صغير ، ومن سوء طباع
زوجيه ، ومن الصخب القائم في القرية الصغيرة التي يقطنها ، وهو
يكاد يئس من مرارة العيش ، وييغى الهرب ولو عدة أيام ،
فسافر فجأة دون أن يخبر أحداً عن وجهته ، فر من شراسة
طبع حماته وسوء خلق زوجته ، قاصداً الهجرة إلى أمريكا ، غير
أنه في طريقه بمونت كارلو وقف لحظة في الشمس المشرقة
ليتمتع بها ، ثم بدا له أن يجرب حظّه على المائدة الخضراء ، فابتسم
له الحظ وربح ثروة لا بأس بها ، وفيما هو يفكر في العودة إلى
قريته بهذه الثروة إذ طالع مصادفة في إحدى الصحف نبأ
وفاته ، وكيف أنهم عثروا على جثته ملقاة في النهر ، فبكته

زوجها وادعت أنه مات متحرراً لضيق ذات يده ، ووجدت بين أهل القرية من يصدق هذا الزعم .

مات ودفن ، وإلى جوار نعشه في المقبرة كان الناس يشيدون بذكره وينسبون إليه جميع الصفات الحميدة ، ويسمونونه بالذكاء المشرق الذي أنكره عليه في إبان حياته إنكاراً باتاً ، فهو الآن « المرحوم » ، وعليه إذن أن يتجرد من شخصيته الحقيقية ليعيش متحرراً من الروابط الاجتماعية .

ها هو ذا يبدأ حياة جديدة ، حياة هادئة ، حياة رجل يعيش من ريع ثروته . ولكنه يسأم البقاء غريباً عن هذه الدنيا . إنه يشاهد ما يجري لسواه دون أن يكون حياً . ثم يتيقن أنه من المحال أن يظل حياً وميتاً في وقت واحد ، فيقرر أن يبعث نفسه بنفسه ، لقد فقد توازنه بعد أن تعرى من شخصيته الأصلية ، فيهدى بقوله : إن الشيء الوحيد الذي أؤكد أنه هو أنني كنت أدعى « ماتياس باسكال » ، وربما اختلط عليه الأمر ففسى أنه كان يدعى بهذا الاسم . . .

يعيب التقدة على بيراندللو أنه يغرق في الخيال وفي عمق التفكير . ولكن الواقع أننا نجد في مؤلفات هذا الكاتب المتدفق أن فيه يسبق الحياة في الكشف عن حقائق ملموسة . فعلى الرغم من أنه ابتكر شخصية ماتياس باسكال فقد طابق خياله منطق

الحقيقة مطابقة تامة، حتى إن حادث ماتياس باسكال وقع مثله بالفعل في ربوع إيطاليا عقب تأليفه هذه الرواية بعدة أعوام...
 ومالنا نذهب بعيداً وأمامنا حادث فريد أسهبت الصحف في التحدث عنه، وقرنته برواية لبيراندلو عنوانها «إيف ولين»، خلاصتها أن شاباً من رجال الأعمال تزوج من فتاة اسمها إيفلين، وعاشا عيشة اللهو والحب. ثم وقع الزوج في عجز وضيق مالى، فلجأ إلى التزوير في حسابات عملائه بالمصرف الذى يعمل فيه. وقبل أن يفتضح أمره فر من وجه العدالة تاركاً امرأته الشابة وطفلاً له منها، وعطف عليها محامى الزوج وآواهما فى بيته، وأصبحت المرأة فى حكم زوجته، وأنجبت منه طفلة، وقد مر على حياتهما الهادئة المطمئنة أحد عشر عاماً. عاد بعدها الزوج الهارب كأشد ما يكون كلفاً وهياماً بامرأته... وهنا يبدو لنا ازدواج الشخصية كأوضح ما يكون جلاء... فقد حارت المرأة بين زوجها القديم وبعلمها الجديد... وإنها لتذكر حياتها القديمة بما فيها من ألوان زاهية مرحة كلها الهوى والشباب، وتقابل بينها وبين الحياة التى تحياها فطابعها الوقار والرصانة والركود والانصراف إلى واجبات البيت... وإن لها من زوجها الأول طفلاً هو اليوم شاب قوى جميل... ومن بعلمها الثانى طفلة تحبها حباً يعادل حبها لولدها الشاب... وكلاهما يمثل ناحية

خاصة من حياتها بألوانها وصورها المتباينة . وإنها لتحن إلى حياتها الأولى المفعمة بالنشاط وذكريات الشباب ، ولكنها تؤثر حياتها الراهنة ، بما يحوطها من وقار وإذعان وانصراف عن اللهو إلى الجهد الصارم . وهي في حياتها الأولى يدعوها زوجها متحبياً إليها « إيف » ، ويناديها رفيق حياتها الثانية متحبياً إليها أيضاً « لين » ، وكل شطرة من هذا الاسم تثير في نفسها صوراً ومعاني زاهرة ، وألواناً مختلفة لا سبيل إلى التوفيق والملاءمة بينها . وينتهى الموقف بأن ترضى بحياتها الراهنة ، وأن يمضى ابنها الشاب ليعيش مع أبيه . . . ولكنها مع ذلك ما تزال تحب زوجها الأول وتحن إلى حياتها القديمة وتشتهيها . وهي إنما قنعت بحياتها الراهنة لظروف ليس في الوسع أن تتحداها .

وقد ظن بعض الناس أن هذه الرواية وليدة الخيال ، فمن المحال أن يقع في الحياة ما يشابهها ؛ ولكن الحوادث أثبتت أن في الحياة مشكلات لا تقل في غرابتها عن فن بيراندللو ؛ إذ وقع في بودابست حادث تزوير ارتكبه شاب يدعى فرادلين ، فر إلى روسيا تاركاً زوجة وطفلة . فاقرنت المرأة بعد أن يئست من عودة الزوج ، وأنجبت من زوجها الجديد طفلاً . ثم عاد الزوج الأول بعد مرور أربعة عشر عاماً ، واتصل به نبأ زواج امرأته . . . وشغلت القضية أذهان الرأى العام زمناً ، وأصبحت

حديث الأندية والمجتمعات . إلى أن أخرجت رواية بيراندللو « إيف ولين » على المسرح ، ومثلتها إحدى الفرق في بوادبست ، فظن الجمهور أن المؤلف إنما يشير إلى هذا الحادث بالذات ، على حين أنه كتب هذه الرواية قبل أن تظهر على المسرح بنحو عشرين عاماً .

تألفت شمس بيراندللو عقب النجاح الباهر الذى أحرزه عن طريق روايته « المرحوم ماتياس باسكال » ، وانتعشت حالته الاقتصادية . ثم توفى حموه فورثت الزوجة عنه ثروة طائلة ، وأصبح فى وسعه أن يمحو من سجل حياته بعض المتاعب المادية ويسدل عليها ستار النسيان .

ولكى نرسم صورة واضحة من حياة هذا الكاتب وارتباطها بفننه ، نقول إن التغلب على المصاعب المادية لم يكن كل شئ ، إذ هبت فى البيت عاصفة عكرت الجو مرة أخرى ؛ فأعصاب زوجته قد تحطمت ، ونوبات الصرع تزداد بسبب غيرتها العمياء من تلميذات زوجها فى الجامعة ، ومن جو الممثلات والفنانات الذى يحوطه . وقد حاول الزوج أن يزيل شكوكها وأوهامها ، فسمح لها بالأ تعطيه من راتبه سوى ما يسمح له بابتياح سبائره وأجر الترام . غير أن هذه المحاولات فشلت ، وأخذ ذلك الحيوان السام الذى يدعونه الغيرة يمتص شبابها ودمها ،

بعد أن قدم إليها أسلحة جديدة من الشكوك والأوهام . ولم يكن
لرأى زوجها أية قيمة عندها ولا أى تأثير فى نفسها . وعلى حين
فجأة ذبل جمالها وانطفأ بريق عينيها ، وأصبحت تعتقد أنها مراقبة
ومكروهة ومضطهدة حتى من أولادها ، وأنهم جميعاً اتفقوا على
أن يدسوا لها السم فى الدسم . وأخيراً اشتد بها الإعياء العصبي ،
وانتهى بجنون لم تشف منه . فنصحته بعض أصدقائه بوضعها
فى إحدى مصحات الأمراض العقلية ، ولكنه لمجرد الرحمة
استبقاها فى البيت متحملاً ثورات غضبها العنيف . ومن
ذلك الوقت جعل ينطوى على نفسه وينسحب على ذاته باحثاً
عن الراحة فى دائرة خياله . ولذلك كان مسرحه - مسرح
قصصه ورواياته - مملوءاً بجو خفيف ، وتنظمه حلقة واحدة ،
هى رقصة من رقصات الموت . أو بعبارة أخرى كانت حياته
تراجيدية عنيفة فى مائة فصل مثلت أمام جمهور محير مندهش .
وإنك لتشعر أن المسرح يتجاوب بتصادم رياح مختلفة ،
وتشعر أن سحابة مسرعة سوداء تعبر هنا وهناك ؛ ولكنك بين
العاصفة والقوضى ، تلمح لمحات ضئيلة مشبعة بزرقة السماء .
سما صقلية التى يهدئ جمال أصيلها - ولو إلى حين - روح
بيراندللو القلقة .

شبت الحرب ، واختير ابنه البكر ليخوض غمارها ، ثم وقع

أسيراً في يد النموسيين . أما ابنه الأصغر فكانت تجري له عملية جراحية في أحد مستشفيات روما ، حتى إذا اجتاز دور النقاهة أرسل فوراً إلى خطوط النار .

وكانت ابنة بيراندللو تتأذى من سوء معاملة الأم لها . وحين فقدت الأمل من إزالة شكوكها نحوها حاولت بدورها الانتحار . غير أنها نجت ، ففكرت في الهرب ، وأخيراً لجأت إلى أحد الأديرة لتقضى بقية حياتها بين جدرانها .

ووصل في أثناء ذلك ستيفانو - والد بيراندللو - من صقلية ، بعد أن صمد دهرًا في وجه المصائب . ففن وفاة زوجته ، إلى إفلاس تجارته وضياع ثروته ، إلى غيرها من الآلام والمتاعب التي انتهت بفقدانه بصره .

ولما كان بيراندللو في غصون هذه الفترة منشغل البال بمصير ولديه اللذين ذهبا إلى الحرب ، ومضطرباً إلى أن يقضى يومه بين زوجة مافونة ، ووالد عاجز ضريب ، وابنة وصمته بميسم العار ، كان لا بد من أن تخرج هذه الأشباح المعضبة التي تحلق وتحوم في ذهنه ، وأن يقدمها للناس في ثوب درامي عنيف ، يجمع بين روح الواقع والخيال . فنظرياته من هذه الوجهة تقوم على خلاصة تجاربه في الحياة ، وتصوير آلامه وأزماته الفكرية ، فهو إذن لا ينحت الخيال ولا يتكلف الأسلوب ،

ولكنه ممن يروحون عن أنفسهم بهذه الزفرات الموجهة .

* * *

يؤمن بيراندلو بأن الحياة مهزلة ، وأن أذهان البشر ليست سوى حقائق خاوية تملؤها الحوادث والأعمال ؛ وهو من أجل ذلك يكره العقل ؛ لا لأن العقل سجين للتقاليد والأوضاع والنواميس ، بل لأنه أيضاً صدفة فارغة لا تملؤها سوى الغريزة العمياء . فالحوادث مثلها مثل الأكياس التي لا يمكنها الوقوف وهي فارغة . كذلك إذا شئنا أن يظل الحادث حياً في الذاكرة ، منتصباً بين ظلال الوعي ، وجب أن يكون له معنى واضح وأن تستقصى الأسباب والبواعث التي أدت إليه .

حتى نظريات هذا الكاتب الجبار ليست سوى إنذار بهدم المنطق ، وإفلاس العقل ، وتفوق الخيال على الحقيقة . وعنده أن للأرواح لغة خاصة تتفاهم بها ، ووسائل تدفعها من وقت لآخر للقيام بأعمال باهرة ؛ على حين أن الشخصيات المادية لا تتجاوز في علاقاتها الحديث العادي .

ومما يحملنا على الاعتقاد بأن نظريات بيراندلو البسكولوجية لا تصل به إلى تفسير الناس ، أنه يلجأ شخصياً إلى هؤلاء الناس لتفسير ألغازه . ولولا روح المرح والفكاهة التي تخلع على مؤلفاته ظلاً هائماً ومسحة خاصة ، لتباعد بينها وبين

محيط الألم ، لكان فنه الروائي هو الجحيم والإنسانية المعذبة في أبشع صورها .

ميزة أخرى يمتاز بها فنه الروائي ، تلك هي مشكلة الشخصية وتعدددها وفوضاها في الإنسان ؛ فإذا كانت الأشياء الحقيقية لا وجود لها إلا تبعاً لتخيلاتنا ونظرتنا إليها ، فكذلك الشخصية لا يمكن أن تكون مستكملة صالحة لكل عصر ؛ فأثرها يختلف في كل محيط وبيئة . فأنا مثلاً لست سوى الشخص الذي يراه معارفى ويراه أقاربى ويراه غيرهم ، ولكنهم جميعاً لا يدركون حقيقة نفسى . وقد يدعى واحد من هؤلاء أن الحق في جانبه ، ولكن أين برهانه ؟ فأنا نفسى لا أعرف من أنا ؟ وكيف أكون ؟ ولكنى أعرف عن نفسى بعض تصورات لا أكثر ولا أقل . ومن يدرينى أنى على حق فيما تصورته عن نفسى ؟ ولست أقصد صدق وجودى ، ولكن أقصد ما أنا عليه ، أقصد شخصيتى — إذا ما تجاوزت عن صحة دعواى أننى أعيش وأحيا — فهذه الشخصية تتبدل في كل دقيقة شيئاً آخر .

لقد درس كل من « إدجار ألن بو » و « روبرت ستيفنسن » نظرية ازدواج الشخصية وانقسامها وتحولها في الفرد . أما (بيراندللو) فيتفوق عليهما في أنه يقسم الشخصية في فنه إلى عشرة أومائة أو ألف . ذلك أن الفرد عنده مكون من شخصيات

متناقضة ، كالحیوان الخرافی الذی تتحدث عنه أساطیر الأولین . وهذا الفرد لا یعرف الأخلاق والعادات ، ولا یقدر الإرادة أو الشهوة المتغلبة ، لأن جمیع مشاعره قابلة للتحول والتغیر والتقلب . وهو حین یعالج مشكلة الشخصية یوازن بین الطبیعة البشریة وما تملیه علیها ظواهر التحلیلات وتعدد المنازعات . فالفرد فی حالته الطبیعیة لیس سوى إنسان عادى تتغلب علیه الغرائز وتسيطر علیه الشهوة . أما حین ینخرج إلى المجتمع ویختلط بالناس فهو مسیر وفق تقالید خاصة وقواعد مرعیة .

إذن فما هو الوازع الذی یردع الإنسان عن التوغل فی شهواته وغرائزه الفطریة حین یختلط بالناس أو حین یتنقل من حیوانیته إلى إنسانیهة ؟

هذا الوازع فی نظر بیراندللو هو الضمیر ، فهو الذی یصبحنا من یوم أن نولد ، وهو الذی یفسر حیاتنا ویقیدها بالنوامیس والأوضاع ویخضعها لشبه نظام قاس من الصعب التمرد علیه . ولكن هذا الضمیر یغفو أحياناً فتتلمس الناحیة الحیوانیة الانفلات من سجن الأوضاع والنظم الاجتماعیة ، وتكون النتيجة الکفاح بین الشخصية التی اکتسبها الإنسان بمكانته الاجتماعیة و بین غرائزه الطبیعیة . وهذا النضال هو الذی یولد فی النفس ما یرسمى بالکآبة التی تعلوها مسحة الابتسام

المتكلف ، والتشاؤم الممتزج بالسخرية ، والقلق المصحوب
بالثورة ، فيظل ذهنه عرضة لتيارات فكرية ودوافع مضطربة
يكون لها أقوى تأثير فى تغيير منحى اتجاهه فى الحياة .

ويفسر بيراندلو نظريته بقوله : « إن شخصية الرجل
الاجتماعية وحياته العملية وتصاريه الأيام قد يكون لها أثر
فى السيطرة على غرائزه البهيمية ، فتختفى الرغبات والمشتبهات
الجنسية تحت ضغط التقاليد والآداب ويكبتها فى قرارة نفسه ؛
أما المرأة فإن شخصيتها الطبيعية ومزاجها الفطرى يسيطران
عليها ، بل يستبدان بها . وهى من أجل ذلك أقل حصانة
من الرجل فى القدرة على سيادة عواطفها والحد من جماح ميولها
وشهواتها الطبيعية

مسرحه

ظل بيراندللو حتى بلوغه الخمسين من عمره عدواً لدوداً للمسرح .

كان يرى أن ما يمثل على خشبته خارج عن حدود المعقول ، وأن موضوعاته ليست لها صلة وثيقة بالحياة . وقد ذكر مرة في هذا الصدد : « بعون الله لن أكتب مسرحية هزلية أو مأساة » . لكن أحد أصدقائه ، وهو الشاعر « نينو مرتوليو » ، انتصر عليه وأغراه بالدخول في حلبة المسرح ، ليكون اتصاله بالجمهور اتصالاً قوياً مباشراً ، فيتذوق الناس فنه الروائي في شكل مسرحيات ، بعد أن تذوقوه عن طريق الأقاصيص والروايات . وبفضل تأثير هذا الصديق وإقناعه تحول بيراندللو فجأة من عدو للمسرح إلى أخلص رواده وأتباعه .

فالأقصوصة والقصة تعيشان طالما عمل الكاتب في تكوين الفكرة وحضانتها وتنشئتها على نحو ما يريد ويهوى ، ثم تدخل القصة في دور الاحتضار عند ما يتسلمها عامل المطبعة لصفح حروفها ، وأخيراً تسير في طريق الفناء بعد أن تلقى في جوف

المكتبة ، فإن رفوفها أشبه ما تكون بالألحاد والمقابر . هناك تتخذ القصة شكلاً معيناً ثابتاً ، مهما حاول القارئ تكييفه ، بعكس الأمر في الدراما ، فإن الحياة تبدأ وتنب فيها وتتجدد ثم تستمر إلى ما لانهاية . وكثيراً ما يصعب على المؤلف إدراك كنه ما كونه خياله عند ما يشاهد عمله الفني على المسرح ، أو على الشاشة البيضاء ، بسبب التغيرات والتحويلات التي يدخلها المخرج ؛ ومع كل فإن أفكار المؤلف تظل نابضة حية على الرغم من تغير الأشكال والمظاهر .

لقد دخل بيراندلو بمسرحياته عواصم العالم المتمدين دخول الظافر المنتصر ، واعترفت الجماع الأدبية بعبقريته هذا الكاتب الفذ الذي اتجه بالمسرح وجهات جديدة . وأذكر أنه بعد أن عرضت في باريس للمرة الأولى مسرحية « ستة أشخاص يبحثون عن مؤلف » ، كتب لوسيان بسنار : « من الصعب أن تقبل باريس انتصار كاتب أجنبي خصوصاً في المسرحيات . ولكن الأمر بالعكس فيما يتعلق بمسرحية « ستة أشخاص يبحثون عن مؤلف » فقد استطاعت الفرقة أن تدخل الذئب إلى حظيرة النعاج . . . » .

في هذه الدراما نرى ستة أشخاص لاحوا عبثاً أمام مخيلة مؤلف آخر ، وذلك حينما كان الممثلون يقومون بإحدى التجارب

على خشبة المسرح . فتوسل الأشخاص الستة إلى مدير المسرح أن يسمح لهم بأن يمثلوا أمامه الأدوار التي كانوا قد خلقوا من أجلها حتى الساعة التي تخلى فيها المؤلف الأصلي عنهم ، ثم التمسوا من المدير نفسه أن يقوم هو بدور المؤلف فيكمل لهم أدوارهم بطريقة ما ، بحيث يصبحون مخلوقات كاملة تتخلص من حياة الاضطراب والشك والنقص الذي يتخبطون بين أحضانه .
أما هؤلاء الأشخاص الستة فهم : أب وأم وابن وابنة ثم ولد وفتاة . . .

ويتولى الأب شرح قضيتهم فيقول : إن الأم هي زوجتي ، وهي تلتحف بالسواد لأنها أرمل ، أرمل . . . ! أجل أرمل عشيقها الذي توفي عنها . وأما الابن فهو ابنها الشرعى الوحيد . وأما الولدان والفتاة فهؤلاء جميعاً أبناء العشيق ؛ وقد عادت عقب وفاته بهذه الذرية غير الشرعية إلى زوجها الأول الذى هو أنا . . . ! » .

غير أن الابن الشرعى يصيح فى تأفف وغيظ : « إن الأمر كله كان فسقاً فى فسق ، وفجوراً فى فجور » ، فتدخل الابنة غير الشرعية وتصرح بقولها : « أجل . . . ولا سيما هذا الحادث الدنى الذى جرى فى منزل مدام ييس ، ذلك المنزل دى السمعة السيئة » .

ولعلها كانت تعنى أن الزوج كان يرتاد منزل مدام ييس ، وهو — على ما يبدو — لا يدرى أن بيتها كان مآخوراً .

ويثور فضول مدير المسرح ويطلب مزيداً من الشرح يلقي ضوءاً على هذه القضية الغامضة ، فيتقدم الأب ليزوده بهذا الشرح قائلاً : « إذن نسرد القصة من البداية . . . لقد عشق أحد كتاب متجري زوجتي وغازلها ، فبادلته حباً بحب ، ولما وقفت على سرهما طردت العشيق وسرحت زوجتي . ثم اتصل بي بعد ذلك أنهما فرا إلى مدينة أخرى حيث كان يعاشرها معاشرة الأزواج عدة سنوات ، أنجبت له في خلالها ثلاثة أطفال ، ثم مات عنها عشيقها ، فاضطرت إلى العودة إلى بلدتنا بأطفالها وهم يكادون يموتون جوعاً . وظلوا على هذا المنوال فترة من الزمن ، إلى أن وجدت الزوجة عملاً عند مدام ييس . كانت الزوجة تعمل في صنع قبعات النساء ، أما ابنتها فقد انخرطت في زمرة أولئك الفتيات الحسان من بنات الهوى اللاتي تجلبهن مدام ييس لمسررات السادة الأثرياء . . . وقد حدث أن لقيت الابنة هناك ، في ذلك المآخور ، ولكن أمها . . أمها التي هي زوجتي . . . فاجأتنا في الوقت المناسب . . تريد أن تحول بيني وبين ابنتها . . . إلا أن الفتاة قاومت أمها بشراسة لم أفهم لها سبباً ، فلما وقفت على السر اضطرت أن أنتشل

الجميع وأويهم إلى داري .

تصغى الفتاة إلى حجة الأب ، ثم تقاطعه قائلة : دارك ؟ ، إنها لم تكن سوى مسكن فقط . وكان ابنك يعدنا طفيليين هبطنا عليه لنعكر صفو مملكته التي ينعم فيها بالبنوة الشرعية ، كان مسلكه معى لا يطاق ، حتى دفعنى فى النهاية إلى أن أخفض له جناح الذل من الرحمة ، فأصبح خطيئته ، وفى الوقت نفسه خلية والده ، بدلا من أن أكون ضيفته .

ويقول الأب : هذا حق . . كنت أراقب مسلك ولدى حيالها ، وكنت أؤنبه فى كل مناسبة .

وتشيع الابتسامة على شفتى مدير المسرح حين تصل المناقشة إلى هذه النقطة بالذات ، ويحسد نفسه على أن المصادفة ساقته إليه موضوع درامة خالدة . غير أن هناك عقبة لا يدرى كيف يذلها ، فهو لم يكن فى يوم ما من كتاب المسرح ، ولم يسبق له أن عالج هذا الضرب من التأليف . إذن فهو فى حاجة إلى كاتب مسرحى يصوغ له من هذه الحيوط درامة طريفة يزجها لرواد المسرح ، تجذب إليه قلوب المتفرجين ، فتنال الأرباح عليه . وبدا له أن يمد يد المساعدة إلى هذه الأسرة المنكوبة ، ولكنه من رقة الحال بحيث لا يمكنه أن ينفق على ستة أشخاص . .

ويصارع مدير المسرح رب الأسرة بما يدور في خلداه ،
 فيهن عليه الأب الخطب ، لأن الأمر يسير ، والحل أيسر .
 فسوف يقوم هؤلاء الستة بأداء أدوارهم من البداية ، وما على
 المخرج إلا أن يوزع عليهم الأدوار ، وكلما تم إخراج قسم
 من الدراما نهض الممثلون فأعادوا تمثيل ما حدث لهم في عالم
 الواقع ، على حين يأخذ المدير في تسجيل ما يراه على خشبة
 المسرح ، وهكذا تم الدراما على هذا المنوال منظرًا في إثر منظر .
 ويتجه المدير لحل العقدة ، ويوافق على هذا الرأي في
 التو ، ثم يستدعى المخرج ، وتوزع الأدوار ، ويشرع في
 إجراء التجربة . ولا يكاد العمل يسير على هذا النحو بضع
 دقائق حتى يمتنع الستة عن التمثيل فجأة ، لأنهم يلاحظون خطأ
 فنيًا وقع دون أن يعترض عليه المخرج . فالممثلون وهم يؤدون
 أدوارهم يضيفون عليها حوارهم بلهجة السخرية . ثم إن حركاتهم
 زائفة وإشاراتهم مصطنعة ، مما أدى إلى أن يخالفوا الواقع
 وينحرفوا عن الحقيقة . فتقول الابنة غير الشرعية : « يبدو لي
 أنكم لم تفهموا موقفي في الأصل . . . فثلا . . . عند ما قابلت
 هذا الرجل — وتشير إلى الأب — في منزل مدام بيس أخبرته
 أنني كنت أرتدى السواد حزناً على والدى الذى فقدته . . .
 فماذا كان جوابه ؟ تقدم نحوى وقال : دعيني أساعدك في

وضع حد لهذا الحزن وذاك الحداد . . . دعيني أساعدك على خلع هذا الرداء القصير .

ويعترض المدير بأن منظراً كهذا لا بد أن يحدث ثورة بين رواد مسرحه ، ذلك لأن الفنان المحترف لا يستطيع أن يصور الواقع في كثير من الأحيان ، ولأن الكاتب المسرحي لا يمكنه أن يجري كل الحقائق على لسان شخصه وأبطاله ، ولذلك ينبغي أن يكون دقيق الاختيار للوقائع التي يمكن إبرازها على المسرح ، حسن التعبير عنها .

وهنا تصيح الفتاة : في وسعك أن تسحق أدوارنا على المسرح ، غير أنك لا تستطيع أن تقتلنا نحن . . . لن نستطيع سحق عواطفنا وهمومنا وعارنا وآلام ضمائرنا واشمئزازنا . فهلم إذن ، دونك مناظر المصطنعة المتكلفة . . . امسخ كل ما حدث بيني وبين هذا الرجل حينما شرع يغازلني ، فضممته إلى صدرى هكذا . . . ثم رحت أغمض عيني . . . وأسند رأسي على صدره . . . ثم تفتح أُمي الباب فجأة ، فيقع نظرها علينا في هذا الموقف المزرى ، وتصرخ . . .

ويحاول رب الأسرة أن يهجم على الفتاة ليسكتها فتشب الأم وتحول بينهما صائحة : ابنتي . . . آه ابنتي . . . دعها وشأنها أيها البهيم . . . ألا تعلم أنها ابنتي ؟

ويغتبط مدير المسرح ويوافق على أن هذه نهاية بديعة
 للفصل الأول من الدراما . . . ثم تمضى بقية الفصول على هذا
 المنوال ؛ ويكون منظر الختام فى حديقة منزل رب الأسرة ،
 هذا المنزل الذى انتقلت إليه الأم وأبنائها الثلاثة على الرغم
 من احتجاج ابن الزوج . وتبدأ تجربة هذا المنظر ، ويبدو
 للمدير أن يقول كلمة ، فيخاطب إحدى الشخصيات :
 « والآن . . . لنر كيف نستطيع بما لدينا من حيلة — أن نحول
 الخيال إلى حقيقة » ، فيستدرك الأب عليه قائلاً : « بل
 بالعكس . . . الصحيح أنكم تحولون الحقيقة دائماً إلى خيال . . . »
 وتمضى لحظة صمت ، فيستطرد رب الأسرة قائلاً : « إن
 الشخصيات المسرحية هى حقيقة واهنة ، أما مدير المسرح ،
 والمؤلفون ، والمخرجون ، والممثلون ، فهم دائماً أناس وهميون
 غير واقعيين . إن الشخصيات الحية تموت ، أما شخصيات
 المسرحيات فهى خالدة ، حية . . . »

ويعترض مدير المسرح على ذلك بقوله : إننى لم أسمع قط
 عن شخصية مختلقة لا توجد إلا فى دماغ المؤلف ، تخرج من
 دورها الذى قيدها فيه مؤلفها ، لتلقى خطباً وتبدى ملاحظات لم
 تدر فى خلد المؤلف قط .

ويجاوره الأب بقوله : « إن كل مؤلف حنكته التجارب يعلم

دائماً أنه تحت رحمة شخصياته وملك لها ، وأنه ينبغي له أن يلاحقها حيثما ذهبت . . .

وتسير الدراماة على هذا النسق إلى أن يدنو الختام ، ويكون الابن غير الشرعى مختبئاً بين الأشجار الصناعية التى يتألف منها المشهد فوق خشبة المسرح ، فيطلق من مسدسه رصاصة تصيب الابن الشرعى ، فيشب مدير المسرح نحوه ويصرخ : « هل جرح ؟ » فيجيبه أحد الممثلين : « لقد قتل » . ويبحث ممثل آخر بقوله : « ولكن الدراماة كانت تمثيلاً فى تمثيل بحيث يخيل للجمهور أنها حقيقة » . فيقول المدير : « الحقيقة ! إنى لم ألسها قط ، إلى الجحيم بكل هذه المتاعب التى أنفقنا فيها وقتنا . لقد أضعنا يوماً كاملاً ، يوماً بتمامه على هؤلاء القوم المجانين » . . .

والحق أن مأساة هذه الشخصيات الست ، هى مأساة عدد كبير من الناس . فبعضنا يخلق نصف خلق ، والآخر يخلق وله مؤهلات وكفايات نادرة ، ولكنه متى أراد أن يطبقها على الواقع تبين له عجزه . فنحن كتلك الشخصيات ؛ إما فرائس عجزنا ، وإما فرائس النقص الذى أودعته الطبيعة فىنا . وكلنا فى حاجة إلى قوى مصدرها الحياة . تنصب فىنا وتكمل النقص الملحوظ فى ذواتنا . وهكذا نصبح مخلوقات كاملة .

وعقيدة بيراندللو في هذا الصدد ، هي أن العمل الفني لا يجب أن تكون نهايته في نفسه ، بحيث لا يعتقد صانعه ، سواء أكان كاتباً أم شاعراً أو مثالا ، أنه أودع فيه الحياة الكبرى ؛ وأن هذه الحياة قد تبلورت في العمل الفني واستقرت . فليست العبرة كل العبرة في أن يمثل العمل الفني حقيقة الحياة بكل جمالها ، وإنما فيما ينطوى عليه هذا العمل من قابلية تجديد الحياة في نفوس الناس .

وأنت إذا لمحت مثالا يقوم بنحت تمثال ، معتقداً أنه يودع فيه سر الحياة ، فإن هذه الحياة لن تكون عظيمة حقاً إلا إذا استطاعت أن تتحرك وتتكلم ، أي أن تعيش مع الناس وتخطب نفوسهم وعقولهم . فلا يكفي أن يكون التمثال من حجر أو من صلصال أو من مرمر ، بل يجب أن يبقى في نظر أُلوف الناس كإنسان من لحم ودم .

وقياساً على هذه النظرية ، يجب أن تظل العواطف والانفعالات والحقائق المودعة في كل عمل فني متنوعة حية ، يفهمها ويفسرها ويشعر بها كل إنسان حسب عقله ومزاجه وحسب نزعته الفكرية والنفسية ، فيتجدد العمل الفني ويتنوع بتجدد الأجيال وتنوع الناس ، وهو لهذا يكون خالداً حقاً . ألا يرجع السبب في نجاح شخصية هملت ، وهي تمثل على

المسرح تارة بملابس تاريخية وأخرى بملابس عصرية ، إلى أن
 جوهر شخصية هملت ما يزال حياً في أعماق قلوبنا ، فهو يتفق
 الآن مع جوهر نفوسنا كما كان يتفق مع جوهر نفوس جيل
 شيكسبير . وهملت نفسه يحوى شخصية قابلة للتجدد ولخاطبة
 مختلف العصور ومتباين الناس ؛ فمؤثراته إذن تتنوع بتنوع
 الأجيال ومطالبها . إذ أن كل جيل يرى في جانب منها صورة
 لجزء أو أجزاء مما يختلج في إحساسه وضميره . وتلك هى قيمة
 التجدد الكامن في العمل الفنى العظيم .

لقد استطاع بيراندللو أن يسخر من نفسه في فنه مر
 السخرية ، ويتهكم بكل ما فرضه من آراء سابقة كان يذيعها
 في الناس . وما أبرعه وهو يخرج لنا شخصية ذلك الكاتب
 المسرحى الذى وصل إلى غاية ما يطمح إليه مؤلف كبير يحترمه
 الجمهور ويكاد يؤطه ويلهج باسمه في كل مكان ! ولكن
 المؤلف على الرغم من ذلك يشعر في قرارة نفسه بأن نجاحه في
 نظر الجمهور شئ ، وتحقيق ما يصبو إليه من مثل أعلى شئ
 آخر ، إلا أن يكون قد استنفد قواه وولى شبابه وغاض نشاطه .
 لم يخدع الكاتب المسرحى بمظاهر التكريم ، ولم يطمئن
 لإجماع الناس ، وفي جملتهم النقاد ، على أنه وحيد عصره وزعيم
 جيله . وماذا يهمه من تمجيد الناس واعترافهم بتفوقه على

أقرانه ما دام هو في أعماقه يعلم أنه بعيد عن مثله الأعلى ؟ !
وكيف يبلغ مثله الأعلى وهو لا يملك القدرة على الابتكار
والخلق ؟ ! لقد فقد الشباب فخدمت بين ضلوعه النار
المقدسة ، ولم يبق سوى بصيص من الجمر تحت الرماد .

ويهو الكاتب المسرحي كاعباً حسناً ، تبعث الحرارة في
جسمه وتلهب إحساسه ، فيشعر بقوة الشباب تتجدد وتتدفق ،
فيثور على شهرته التي لا يختلف فيها اثنان ، ثم يشمر عن
ساعد الجد ليضع درامة جديدة تحت اسم مستعار ، وتمثل
الدرامة ويعجب الجمهور بها أيما إعجاب ، ويتفق الرأي العام
على أن صاحبها هو زعيم المدرسة الحديثة المنتظر ، ورائد النهضة
الفنية في التفكير وفي طريقة التنسيق المسرحي ، فيغتبط الكاتب
في سريرة نفسه ، وأخيراً يجد الشجاعة ليعلن على الملأ أنه هو
مؤلف الدراما التي ظفرت بإعجابهم ، فيحقق الجمهور عليه ،
ويضايقه الشباب والدهماء ويسدون عليه المسالك ، ألم يهتموه
من قبل بأنه زعيم المدرسة القديمة ؟ وفي النهاية يضطر إلى
التراجع ويزعم أنه وضع هذه الدراما على سبيل الهزل ،
فيرضى الجمهور عنه ، لكن حبيبته تعد ذلك التقهقر إهانة لها
وخيانة في حق الفن لا تغتفر ، وتمضي عنه غير آسفة .

ولكن ليس هذا كل ما في الأمر . فالمأساة الحقيقية هي

مأساة الضن على كاتب مسرحى يريد أن يكون كما يشتهى
هو وليس كما يشتهى الجمهور . فإن الكاتب المسرحى يتحول
فى النهاية إلى تمثال من الحجر وهو جالس على مقعده أمام
مكتبه فى قاعة المطالعة ، إشارة إلى تحجر عقله وجمود ذهنه .
ثم يمضى على التمثال ثلاثون عاماً وهو ملقى فى حانوت أحد
بائعى التحف والعاديات إلى أن يجىء عمدة مدينة مجاورة لابتىاع
تمثال قررت البلدية إقامته فى أحد الميادين ، وفيما هو ينقل
بصره داخل الحانوت إذ يروقه منظر التمثال الذى نحن
بصدده ويتباعه بثمن بخس ، لكنه يجد اسم الكاتب المسرحى
منقوشاً على الرغم من اندثار صيته ، فيطمس الاسم وينقش
بدلاً منه اسم واحد من الأعيان .

يقول لنا بيراندللو فى سخرية لازعة إن هذا هو الصيت
الحقيقى والشهرة الصحيحة . فإن للجماهير سلطاناً عجيباً وأحكاماً
قاهرة ، وفى بعض الأحيان يظفر بالشهرة من ليس بأهل لها .
فإذا عرف شخص بسمات خاصة أبى الجمهور عليه أن يشتهر
بسواها . وبعض المشاهير يدركون أن دواعى الشهرة لا ترضيهم ،
فإذا حاولوا إرضاء أنفسهم باعوا بسخط الجمهور . فكأن
للإنسان شخصيتين منفصلتين : إحداها ظاهرة معروفة ،
وأخرى مستترة مجهولة . والوجود الحقيقى للإنسان ليس فيما

بيديه ، ولكن فيما يخفيه .

لم يكن بيراندللو مبسوطاً على كف المعرفة قبل أن يهتم بتكوين فرقة مسرحية يطوف بها عواصم أوروبا ومدنها ، لاتصحبه في أسفاره سوى آلة كاتبة صغيرة الحجم يحملها تحت إبطه ويشق بها طريقه إلى العالم .

هجر منصبه في الجامعة الذي ظل يشغله ٢٤ عاماً ، للاشتغال بالمسرح والسينما ، فكان يشترك مع المخرج في إبراز الدراما على المسرح اشتراكاً فعلياً . لكنه ظل بعيداً عن الاشتغال بالعمل السينمائي داخل الاستديو . وفي الوقت نفسه نشد الراحة في الكتابة وعكف على تغذية الحياة الأدبية بمؤلفاته ، حيث سادت فيها شخصيته القوية ، وأصبحت كجمعية إنسانية قائمة بذاتها .

الشك ! لقد أخذ يبذره وينميه في كل ركن من أركان مسرحياته . فمن منا لم يشهد على الشاشة البيضاء روايته (كما تريدني) التي مثلتها جريتا جاربو ؟ ! وهل كان المحور الذي تدور عليه سوى الشك ونشدان الحقيقة التي لا ظل لها ولا وجود في الفرد ؟

تمعن في شخصية مدام فرولا ، في مسرحية « كل على حقيقته » ، وكيف فقدت ماضيها وحاضرها ومستقبلها

فى الحياة ! فهى تؤكد أن زوج ابنتها بونزا رجل مجنون
 بسبب توهمه أنه تزوج للمرة الثانية ، وأن زوجه الأولى لقيت
 حتفها فى حادث زلزال ، على حين أن بونزا يؤكد عكس
 ذلك ، ويرى حماته مدام فرولا بالجنون ، ونقطة التحول التى
 أدت إلى جنونها هى أنها تعتقد ب وفاة ابنتها أى زوجه الأولى ،
 وتخال نفسها زوجته الثانية ، أما الزوجة الشابة التى لا تظهر
 إلا فى ختام الدراما فتبدو شخصيتها خيالية ، غامضة ،
 معقدة ، فينظر أهل المدينة إليها نظرة الدهشة ، وهم منقسمون
 إلى فريقين : الأول يعتقد أن مدام فرولا مجنونة ، والفريق
 الآخر يؤكد أن بونزا هو المجنون . والحقيقة هى ما جاءت على
 لسان المرأة الشابة : إننى ابنة مدام فرولا وزوجة بونزا الثانية .
 أما بالنسبة إلى فلا شىء ، أنا تلك التى ينشدها الجميع !! .
 أما موضوع مسرحية « واحد ولا أحد ثم مائة ألف »
 فأغرب من تلك ، بطلها فيتانجلو موسكاردو . رجل يقف بأبواب
 الحياة ، محاولا أن يتفهم أسرارها ويفك رموزها ليكشف القناع
 عنها ، هو رجل ثرى ورث عن أبيه ثروة طائلة ، ولكن الشك
 يطغى على نفسه ويعشى عينيه ، فيروح يتساعل فى لهجة الطفل
 الحرون : لماذا يكون هو ابن أبيه وليس سواه ابن أبيه ؟ لماذا
 كان جسمه مكوناً بهذه الطريقة وليس بغيرها ؟ لماذا ولد فى اليوم

المدون في شهادة ميلاده وليس قبله أو بعده ؟ لماذا هو سجين في قيود الزمن التي لا يمكن حلها ؟ إنه يرى نفسه يعيش ، ويلقى ذاته بين الحياة والنظر إلى الحياة . والفرق بين الحياة والنظر إلى الحياة كالفرق بين الحياة والموت . يقول بيراندللو بلسان البطل : من عاش دون أن يرى أنه يعيش فهو يحيا حياة سعيدة ، فإذا استطاع أن يكشف كنه حياته ويتأملها ويتفحصها أصبح هذا دليلا على أنه لا يحيا حياته ، بل هو يتحملها ويجر أذيالها كأنها شيء فني وذوي ومات ، فشكل الحياة في عرفه هو الموت .

ومأساة فيتا نجلو موسكاردو . تتركز في أنه لا يعرف نفسه ولا يدرك كنهه ، وهو يسعى في أن يكسو حياته بشكل معين محدود لا يخرج عنه .

فمعظم الناس يعتقدون أنهم انتصروا على الحياة إذا ما منحوها الشكل المطابق لطريقة معيشتهم ؛ ولكن هذا الظن خطأ محض ، لأنهم إذا ما فعلوا ذلك بدأوا يشعرون بأعراض الموت تدب في أوصالهم شيئا فشيئا ، هم لا يفكرون لأنهم لا يرون أنفسهم ، وليس في وسعهم التخلص من هذا الشبح الفاني المتعلق بهم ، لذلك لا يشعرون بأنهم أموات ، ويخالون أنهم ما زالوا أحياء ، ولكن الشخص الوحيد الذي يشذ عن المجموع

ويكشف شخصيته هو الذى ينبجج فى رؤية الشكل الذى أعطاه لنفسه ، والشكل الذى خلعه عليه غيره ، ومتى أدرك رؤية هذا الشكل وعكف على تأمله والتعن فيه دل ذلك على أن حياته قد انتهت وأصبحت عبئاً ثقيلاً عليه . والصفة الدائمة التى نطلق عليها « الشخصية » ليست سوى إحدى الصفات المتعددة المكون منها كل فرد ؛ أى الصفة التى تتغلب مؤقتاً على بقية الصفات . فالفرد واحد بنفسه ومائة ألف بالنسبة لغيره . ويستنتج من ذلك أن الفرد فى نظر المائة ألف لا يمثل أحداً .

شخصية مدام مورلى فى المسرحية الخزلية الموسومة بعنوان « مدام مورلى رقم ١ ومام مورلى رقم ٢ » هى أنها زوجة مخلصه عطوف ، جذابة ، ضاحكة أمام زوجها . فهى إذن المثل الأعلى للمرأة التى ينشدها الزوج .

ولكن لمام مورلى عشيق لا تبدو أمامه إلا هادئة متواضعة ، تمر أمامه ولا يراها . فالحقيقة عند كل من الزوج والعاشق ضائعة .

وتقرأ موضوع الرواية وتشاهد المسرحية وأنت تقول : أهذه زوجته ؟ أهذا زوجها ؟ ولماذا تحاول أن تعلم ؟ فسعادة الإنسان تقضى عليه بأن يخدع نفسه أكثر الأحيان ! والسعادة

كالثروة والشباب ، فمن الناس من يشعر بالغنى وهو لا يملك
شيئاً ، أو بالفقر وهو يملك كل شيء . ومنهم من يحس نفسه
شيخاً هرمًا وهو في الثلاثين ، أو شاباً فتياً وهو في الستين .
والطبيعة البشرية لا يمكن تغييرها ، ولكن في وسعنا ترقيتها
بخيالنا وتصوراتنا ، وأخيلتنا وتصوراتنا هي التي تشقىنا
أو تسعدنا . . .

في معترك الحياة

على الرغم من التشجيع والعطف الذي أولته الحكومة مسرح بيراندللو ، ومع النجاح الفني الرائع الذي لاقته دراماته ، انتهى مسرحه بفشل مالي ذريع . كان اسمه يتلأأ في سماء الفن ويقترن بأسماء الفنانين الكبار في الدراما الحديثة ، مثل براجاليا وجويدو سالفيني ، ولكن إخفاق الأستاذ زاد في تشاؤمه ، ولو قدر لمسرح « الاثنى عشر » — كما كان يسمى — أن يحقق أغراضه الفنية ، وأضحى مركزاً للتجارب في الدراما الحديثة ، لظل بيراندللو هناك مدى الحياة . ولكن الظروف اضطرتة إلى أن يكون رحالة يتنقل بفرقته التمثيلية من بلد إلى بلد مشرفاً على تمثيل مسرحياته .

ففي شتاء عام ١٩٣٢ وفد على مصر ، وأقيمت له حفلات تكريم ، في مقدمتها حفلة جماعة « دانتي أليجيري » بالقاهرة . ودعته مدرسة الليسيه الفرنسية بالإسكندرية إلى إلقاء محاضرة ؛ وأذكر أن موضوع هذه المحاضرة كان يدور حول المرأة والسعادة والزواج . تناول الأستاذ فيها شرح رأيه فيما يتعلق بالمرأة والنهضة

النسائية ، فكان في جملة ما ذكره أن كل إنسان يعلم أن المرأة تفيد من الزواج بقدر ما يخسر الرجل ، ذلك أن كل زوج ينحدر قليلا إلى مستوى زوجه . أما الزوجة فإنها تفيد لأنها تتعلم من الرجل أشياء لم تكن تعلمتها . فالرجل إذن هو الخاسر ، ويجب أن تقنع المرأة بأنها امرأة ، وأن تعلم أنها كلما تمسكت بأنوثتها زاد سلطانها على الرجل . وفي رأى بيراندالو أن المرأة تخسر إذا أرادت أن تقوم بعمل الرجل وتضطلع بمسئوليته ، ولذلك يجب أن يلزم كل من الجنسين حده ، وأن يعرف حقوقه وواجباته ، ونحن في إيطاليا نحب نساءنا ، ونقدس الحياة العائلية ، ونشفق على المرأة أن يفسد العمل أنوثتها . والأنوثة بكل معانيها هي كل ما يطلبه العالم في المرأة . فمن واجب كل امرأة أن تشبه نفسها بالأرض — أمنا جميعاً — فتستقبل البذور وأشعة الشمس وقطرات المطر وتخرج للعالم أطيب الثمرات . تلك هي رسالتها وسر عظمتها في الحياة .

والواقع أن بيراندالو نصب قلمه لمقاومة ما يسمونه « النهضة النسائية » ، وما من بطلنة عصرية في دراماته إلا جعل خاتمتها تعيسة ، كما سيمر بنا في مسرحية « ستر العرايا » ، حيث جعل من (أرزليا) شهيدة الحياة العصرية التي اندفعت المرأة في غمارها .

وفي نوفمبر عام ١٩٣٤ منحته مؤسسة أستكهم جائزة نوبل العالمية في الأدب ، وبذلك أصبح بيراندلو ثالث كتاب إيطاليا الذين يظفرون بهذه الجائزة . فكان الأول الشاعر كاردوتشي (١٩٠٦) ، والثاني القصصية جراسيا ديلليدا (١٩٢٦) . وعلى إثر ذلك استطارت شهرته في أوساط السينما ، ولا سيما عند ما قامت جريتا جاربو بتمثيل الدور الأول من روايته « كما تريدني » .

إن الشهرة وحدها هي التي جعلت من بيراندلو رحالة يضرب في مشارق الأرض ومغاربها . وقد قال يوماً في هذا الصدد : « إني أعيش في الدنيا الرحبة والفندق وطني ، وكل ما أملكه آلتى الكاتبة التي أشق بها طريقى إلى المجد . أما حياتى فلا تغير فيها ولا تبديل ، سواء كنت في ميلان أو أم في باريس أم في براج أم في نيويورك ، إن حلمى الجميل ، وهو أن أكون رب عائلة أحضن أولادى ، قد تبخر وذاب في الهواء . ما فائدة منزلى ؟ ! لقد كان يجب أن تكون لى مركبة تجرها أربع عجالات ، تنقلنى من بلد إلى آخر والذين رأوا الأستاذ في أواخر أيامه كانوا يحسبونه كأنما هو « بوذا » الصينى مستغرقاً في تأملاته ، كان قد حرر نفسه من الشقاء الدنيوى . وكماخلص متحمس لشوبنهاور قتل في نفسه إرادة الحياة ، فقد تخلص من ممتلكاته

الأرضية بتقسيمها وتوزيعها بين أولاده . وقد قال : « إن كل ما تبقى لى هو إشفاق على الإنسانية ، حيث كتب لى أن أعيش فى هذه الدنيا القاسية ، الفترة المحددة لأجلى » . والواقع أننا عندما نتمعن النظر فى دراسة المسرحيات التى كتبها فى سنواته الأخيرة نجدها محاورات أفلاطونية يمثل فيها الأستاذ دور « سقراط الحزين » ، فكل درامة منها تتكون من عنصرين : جانب الحوار وجانب الخرافة ، فإن بيراندللو يلجأ إلى الخرافة ليوضح مناقشاته ، ثم يتنبأ للجمهور . ولنأخذ على سبيل المثال درامة « صديق الزوجة » التى قدمها مع أخريات إلى تلميذته الممثلة الموهوبة « مارتا آبا » فنجد البطلة لها شعر كستنائى مثل شعر مارتا ، وهى النبل مجسماً ، ذلك النبل الذى يختلف عن طباع المجتمع القائمة على السفساف والفساد ، فإن مارتا بطبيعتها الفاضلة تسيطر على هؤلاء المخلوقات التعيسات اللائى تحكمهن الغريزة ، وهى التى ترتب زيجاتهم وتبئى منازلهم وتفض منازعاتهم وتلم شملهم حين يتفرقون ، وإن مارتا بذاتها هى التى تمنح الحياة لكل منهم ، إن طبيعتها هى التى تنير طريقهم ، والعجيب فى كل ذلك أنه ما من رجل من هؤلاء يريد أن يتزوجها ، فإن تحفظها جعلهم حيالها جنباء ، مقيدى الألسن ؛ ولذلك يتزوجون بنساء أقل طبقة

منها ، ويعيشون على ذكريات الأسف فيما يتعلق بمارتا . أما هي فتعيش للآخرين ولا تعيش لنفسها ، فهي تمثل الطهارة الخرافية محاطة بقوى الشر . وتنتهى الدراما بانتصار قوى الشر ، فإن « فنرى » هو « ياجو » الدراما التى تختتم بقول مارتا لأصدقائها : « دعونى ، أريد أن أعيش فى عزلة » . . وهذه العزلة هى مصير كل النساء النبيلات اللاتى يرتفعن فوق طبقة المجتمع الإنسانى الفاسد . . .

أما فى مسرحية « فتش عن نفسك » فإنه يطرق موضوعها من ناحية أخرى مختلفة ، إذ يدرس فيها تأثير صناعة التمثيل فى الممثلة المحترفة . وهى تحاكى من هذه الوجهة رواية دانترىو « النار » وما أبعد الفارق بين الكاتبين ! ألقى دانترىو نفسه بين أحضان الممثلة البارعة « الينورادوزى » ، يستنشق من أنفاسها عبير الفن والحب ، ويستلهم من جمالها روعة أشعاره الخالدة ، ثم استغل حب هذه الفنانة أبشع استغلال ؛ وتناثرت الشائعات حول استغلاله إياها مادياً ، لكنه كان يدافع عن موقفه بأن من حق السوبرمان أن يستغل المرأة كما يستغل الرجال العاديين ، تمشياً مع قانون التطور ، ونزولاً على رغبة الفردية القوية . . . استغل فيها فكانت تمثل مسرحياته خارج إيطاليا ، وتخلد أبطاله خارج إيطاليا ؛ واستغل أموالها فصارت تسدد ديونه

ونفقاته الباهظة ؛ واستغل روحها فصارت لا ترى حياتها إلا
مكتملة بحياة الشاعر ، وأخيراً استغل سرها ففضحه في روايته
« النار » ، حتى إن كل من قرأ الكتاب يتبين شخصية كبيرة
ممثلات إيطاليا بين السطور ، « هذه المرأة التي تجوب العالم
في عزلة وتحمل في طيات ثيابها جنون الجماهير » وكانت
العاشقة الموهلة لا تكثرث بكل هذه النوازل إذ كانت تعتقد
أنه يهواها ؛ ولكن لما هجرها في النهاية وطار من عشها لتنتزعه
من بين أحضانها يد أقوى من يدها ، قضى الموت على شجونها
فانتحرت وهي تصيح : « أنبئوه أني قد غفرت له » !

أما في رأى بيراندللو فإن ممثلة موهوبة مثل مارتا آبا — التي
يسميا (دوناتا جتري) في مسرحيته ، فيجب أن تطلق الحياة
الحقيقية وتقنع بالوجود في دائرة مصطنعة تمثلها على المسرح . لقد
قيل إن مارتا تنقصر الشخصيات التي تمثلها حتى كأنها منومة .
ويصفها بيراندللو في مسرحيته بأنها امرأة شاحبة مدهولة ، ذات
عينين كبيرتين حزيتين . وقد استطاعت مارتا أن تمحو
ميله نحو الفكاهة اللاذعة وتحوله إلى طريق التراجيدية . فلم
نعد نعيش في مسرحياته وسط الإنسانية الصاخبة ، بل انتقلنا
إلى قصور يتكلم فيها السادة بأسلوب يماثل أسلوب دانتيو .
وهنا تتمثل مأساة مارتا بشكل واضح ، فإنها تتعلق بالجسمهور

جسداً وروحاً . والجمهور له الحق في أن يعجب بها ويتعلق بها ، وإنما عليها أن لا تندمج في الجمهور ، بل تقنع من بعيد بالحدب والعطف ، وعليها أن تنكر نفسها وتسير في الحياة مختزنة آلاف الذكريات لأشياء كان يحتمل أن تصير . والواقع أننا عندما ننظر إلى المسرح الأخير لبيراندلو نظرة محايدة ، يجب أن نعطي الممثلة العظيمة أهميتها في تاريخ حياته ، فقد كانت ملهمة أعماله الفنية ، وكل مسرحياته تقريباً مهداة إليها ، وإن المرء يشعر حقاً بأنه كتبها خصيصاً لها ، فإن تمثيلها مصطبغ بصبغة عاطفية ، مما زاد من جمال شخصيات بييراندلو الحزينة ، وكان نجاحها موفقاً ومضموناً منذ أن اضطلعت بدور « ارزاليا دراى » في درامته « ستر العرايا » . ولتأخذ مثلاً آخر في مسرحيته « ديانا » حيث يصفها المؤلف — وكأنما صب عبقريته في الوصف على مارتا نفسها — : إنها لصغيرة جداً وجميلة حقاً ، وإن شعرها الملتوى الكستنائى لمنظم على الطريقة الإغريقية . وعيناها الخضراوان الكبيرتان اللامعتان تنظران بجمال يحاكي جمال الفجر ، وعند ما يعتربها الحزن يكون لها شكل الزمردة ، وعلى شفيتها مسحة حزن ، كأن الحياة أيقظت في نفسها الشعور بالاحتقار والمرارة ، ولكنها عندما تتحول فجأة إلى رشاقة لامعة تنير كل شيء حولها !

ومارتا آبا هي ممثلة إيطالية المتعددة الجوانب . فهي التي
 أثارت إعجاب الجماهير في مسرحية دانزيو « ابنة يوريو » ،
 ولكنها في درامات بيراندلو تتخذ شكلا آخر ، فبدلا من أن
 تمثل بطلات دانزيو البطيئات الحزينات ، المكتسيات بضباب
 من الشعر والخيال ، نجدها تمثل بطلات بيراندلو المعذبات ،
 العصريات ، اللأئي يقعن في شباك الحياة .
 وعلى سبيل المثل نذكر قول جيونكانو لتودا في مسرحية
 « ديانا » :

— عند ما كنت طفلة كنت تتحركين بسهولة . تشين هنا
 وهناك ، ثم قل ذلك بالتدريج . . . ؛ أنظنين أنك عشت .
 أنت يا بنيتي في سبيل الموت !
 على أن أحسن المسرحيات التي تمثل عظمة مارتا هي « كما
 تريدني » ، التي قامت بإخراجها على الشاشة جريتا جاربو ، حيث
 صبغت دور البطلة الصقلية بجو إسكندينا في غامض . وكل الذين
 شاهدوا مارتا تمثل هذا الدور على المسرح أخبروها على الرغم من
 البون الشاسع بين عبقرية الممثلتين

فى حلبة الساسة

على الرغم من تشاؤم بيراندللو وبغضه الانغماس فى الساسة وعدم ارتياحه إلى الأوضاع الحزبية القائمة فى بلده نرى أن التيار الساسى كاد يحرفه شيئاً فشيئاً من الميدان . فمذ عام ١٨٨٩ كان يعبر عن اشمئزازه وعدم ارتياحه إلى الساسة بعد عهد جريبالدى . والواقع أن روما كانت منذ ذلك التاريخ فى دور انحلال ، فلم تكن بحاجة إلى حرب ، ولم تكن بحاجة إلى إيقاظ ثورة فى نفس بيراندللو تقلب نظم الدنيا القديمة من أساسها . وإنه فى روايته الطويلة « الشباب والشيخوخة » التى قدمها إلى أولاده (صغار اليوم كبار الغد) صور هذه الدنيا على لوحة كبيرة وهى فى سبيل الانهيار .

وكان رجال الحركة التطلعية أول من طالب جهاراً بضرورة دخول إيطاليا الحرب ضد كتلة أوروبا الوسطى ، وكانت هذه المطالبة داعية إلى اعتقالهم فى ميلانو . وكان دانترىو مقيماً فى بداية الحرب (١٩١٤ - ١٩١٨) فى وطنه الفكرى — فرنسا — وقد شارف الخمسين من عمره . وسرعان ما عاد

إلى روما . وسرعان ما تحول من الأدب إلى السياسة . ثم أخذ يدعو إلى ضرورة الدخول في الحرب إلى جانب الحلفاء . وصادفت دعوته قبولا من الشباب المتحمس . ثم تطوع بنفسه في صفوف الجند ، وتدرّب على فنون الطيران ، وانتقل على متن الهواء في المواقع الحربية حتى فقد إحدى عينيه . أما مارينتي فأفرج عنه وخاض غمار الحرب في صفوف راكبي الدراجات البخارية في فيالق الألب . وأما بيراندالو فاكتفى بأن قدم ولديه ستيفانو وفاوستو قرباناً على مذبح مارس — إله الحرب — وجلس هو في برجه العاجي يشهد مواكب الحياة ويستخلص منها عبراً يسجلها . . .

ثم وضعت الحرب أوزارها ، وكان خيال منطقة فيومي الواقعة على الساحل الشرقي من البحر الأدرياتيكي شاخصاً أمام عيون رجال الحركة التطلعية ، وكان مارينتي قد جمع كتل الشباب لينادوا في الميادين العامة بضرورة حصول إيطاليا على أرض جديدة في مقابل ما قدمته من أبنائها ودمائها وأموالها . ثم جاء داننزيو وظل يتربص الفرص لضم فيومي إلى إيطاليا . فلما قررت لجنة الحلفاء اعتبار هذه المنطقة دولية انفجرت عواطف الشاعر ، فقام على رأس قوة بحرية عظيمة مقترباً من ثغر فيومي ضارباً بقرار ولسن عرض الحائط ، حتى إذا ما

أصبح على قاب قوسين منها تصدى له الجنرال بتالوجا قائد الحامية ولكن دانتزيو اعتمد على ذلاقة لسانه وقوة بيانه فخطب بين حنوده خطاباً حماسياً أثر في نفس قائد الحامية ، فسلمه مفتاح الميناء . وعند ما لامه العالم على فعلته ، وكيف أقدم على خرق حرمة المعاهدات الدولية ، وجه إليه قصيدة موسيقية رائعة بدأها بقوله : أستحلف فرنسا التي أنجبت شاعرها هيجو ، وإنجلترا التي خرج منها كاتبها ملتون ، وأمريكا التي قادها إلى النصر لنكولن ، أن يكن شهادات عدل على ما قد أتيت به ، أنا ابن الوطن ، الجندي الجريح ، الذي أذهلته نتائج الحرب ، ودفعته إلى ضم فيومي الرضيعة إلى أمها إيطاليا .

وعاد رجال الحركة التطوعية بعد هذا الانتصار الحاسم بنحو خمسة عشر شهراً وهم يحملون مبادئ جديدة ، وأفكاراً جديدة . فأسس بيراندللو بالاشتراك مع مارينتي وماريو كارلي وفيروتشو فيكي جمعيات « الأريدي » التي تعد النواة الأولى للتشكيلات الفاشستية . وكان موسوليني نفسه في جملة أعضائها ، ونشبت معارك دامية بين رجال هذه التشكيلات وبين الشيوعيين الفوضويين . وعندما انتصرت الفاشية ولاح اسم موسوليني في الأفق وأصبح ملء الأفواه والأسماع ، لم ينس الرجال الذين

قاتلوا معه في صف واحد من أجل المجد ، فمنح داننزيو قصرًا منيفاً هو « الفيتوريالى » الذى تحول إلى جنان فيحاء ، ومنحه لقب « أمير » ، وأهداه يخبثاً بقائده وبحارته ، ووضع تحت تصرفه حرساً خاصاً . وعند ما أسس موسوليني « مجمع الخالدين » في روما على نسق الأكاديمية الفرنسية كان بيراندللو في مقدمة الذين رشحوا لرياستها ، غير أنه تنحى عن الرياسة وقنع بعضوية المجمع فقط . أما مارينتى فوقع الاختيار عليه ليكون سكرتير القسم الأدبي بالمجمع وكاتم أسرار « النقابة الوطنية للكتاب والمؤلفين » .

* * *

قامت الحركة العدائية بين إيطاليا والحبيشة ، وحشد موسوليني قواته لمهاجمة الشعب الأثيوبي والزحف عليه وتطويقه من الشمال والجنوب ، فطلع داننزيو من جديد على أبناء وطنه يصرخ فيهم أن احتشدوا لموسوليني وأيدوه فإنه يقودكم إلى النصر . . . فكان الرجل نسي كل عداوة كانت بينه وبين موسوليني ، الذى انتزع منه أعظم مجد تاريخي ، ولبس مسوح السياسى وتقدم بالمبادئ التى كان قد وضعها للفاشية ، ثم قام ينادى بموسوليني ويدين بزعامته . . . أما بيراندللو فكانت مهمته قاصرة على إنعاش حركة الثقافة القومية ورفع شأنها داخل إيطاليا وفي خارجها .

فحين قررت عصبة الأمم مقاطعة البضائع الإيطالية ناشد
موسوليني قومه أن لا يسافروا إلا على البواخر الإيطالية وحدها .
وكان بيراندللو في جملة الذين رضخوا لهذا الأمر . . . وفي إحدى
رحلاته الفنية حملته باخرة إيطالية مع أفراد فرقته المسرحية إلى
نيويورك ، واستقبل هناك استقبالا حافلا تقديراً لمكانته الأدبية ،
ولأن شهرته كانت قد ذاعت على أثر ظفوره بجائزة نوبل وقيام
جريتاجاروبو بتمثيل درامته « كما تريدني » على الشاشة البيضاء .
وانتظر القوم أن يكون لشيخ الكتاب رأى يتزع نحو السلام ،
ففي إحدى الحفلات التي أقيمت لتكريمه أخذوا يحدثونه في
شؤون شتى ، ويستوضحونه رأيه فيما إذا كان يؤيد قضية الحبشة
وموقف موسوليني منها ، فقال :

— إن الأمة الإيطالية كلها تؤيد زعيمها في مسعاه ، وتود
لو تنتهى قضية الحبشة ويقضى عليها القضاء الأخير . . . فنذ
نصف قرن أو يزيد تحاول إيطاليا أن تفتح بابا للثقافة الحديثة
في الحبشة التي لا تزال عالماً إقطاعياً يعيش في الظلام ويسوده
الجهل ؛ ولكنها أخفقت في مساعيها السلمية لإصرار الزعماء
الأثيوبيين على العدا والاحتفاظ بسلطتهم على الشعب بالذرائع
الغاشمة ومنها الاسترقاق . وإن ما ينشد موسوليني أن يخطه
في الحبشة لشبيه بما أتاه أجدادكم الأمريكيون المهاجرون مع

الهنود الحمر المتوحشين ، إذ حاربوهم وافتتحو بلادهم وجعلوا من أمريكا موطناً لأقدام الجنس الأبيض موطن الأركان . لذلك يجب أن يعطف الأمريكيون — على إيطاليا في محاولتها إدخال الثقافة إلى بلاد لاتزال تعيش في ظلمات الجهالة » .

هذا ما قاله بيراندلو ؛ وهو في الحقيقة تمويه على العقول وشاعرية خيالية ، فهو يحاول أن يعلل عدوان إيطاليا على الحبشة تعليلاً ثقافياً ، كأنما إيطاليا منزلة على الأرض لنشر الثقافة بين الشعوب !

فلسفته

أصبح بيراندللو أستاذ النسبية البسكولوجية . ولم يعرف تاريخ المسرح الأوربي كائناً ارتفع بموضوع دراماته إلى أفكار ومبادئ وعواطف إنسانية مثله . فاستطاع أن يصور في معظم دراماته توزع الميول والعواطف في نفس الإنسان وعدم استقرارها على فكرة واحدة أو رأى واحد . فالعواطف البشرية عنده — كما رأينا — دأمة القلب والتلون والتجدد ، وفي الإنسان عشرات الشخصيات التي تظهر وتختفي حسب ظروف حياته .

يقول أدريانو تلجر في كتاب نشره عن فن بيراندللو المسرحي أو ما يسمونه « بالبيراندليات الحديثة » : إنه لم يتأثر في فنه بالمؤثرات اللاتينية ، بل يدل أدبه على أنه تأثر « بأدب الشمال » ، وليس ذلك بغريب من كتاب الجنوب والمشبعين بأساليب الثقافة اللاتينية . وبعضهم أمثال جبرائيل دانتيو ، وجوزيف جيا كوزا ، وسمبلي قد تأثروا إلى مدى بعيد بأدب إبسن وطريقته في معالجة المشكلات الاجتماعية . . . وكتب الناقد المسرحي شارل دولين يقول : « لو لم يكن بيراندللو مولوداً في جنوب إيطاليا لاعتقدنا بعد

مشاهدة مسرحياته أنه من مواطني إيسن . والحقيقة أن إيسن سبق أن أقام فترة طويلة في ربوع إيطاليا ، وكان له الفضل الأكبر في تكوين مدرسة مسرحية تمت إلى فنه بأقوى الصلات . وقد نهضت دعوة هذه المدرسة على تحرير المسرح الإيطالي من عبودية الطريقة الشعرية والخروج به إلى ما يسمى بالفكرة التصويرية التي خلقها التحليل الواقعي ، وإبراز الجانب الإنساني من الحياة ، تتخلله روح الدعابة والسخرية . ثم أضاف بيراندللو إلى ذلك طريقته الحديثة القائمة على تمثيل العلاقة النفسية بين الحقائق والأوهام ، فأحدثت هذه الطريقة في بداية الأمر نفوراً في الأوساط المسرحية ، وحمل عليه بعض المغرضين حملات عنيفة . أما هو فكان على ثقة تامة من نفسه . فقال : « إنهم يسخرون مني ، فلندعهم يسخرون . ولكني معتقد أنهم سوف يرحبون بفني ويقدروني كما قدروا الكاتب التطلعي مارينتي . إنني على ثقة من أنهم يفهموني تمام الفهم ، ولكنهم لا يريدون التسليم بذلك ضنا بكبريائهم وعزة نفوسهم ، أما الجمهور نفسه فيقدرني ، وهو من فرط تقديره لفني يخشى أن يظهر إعجابه بقوة تجعلني أغتر بنفسي ! ! » لقد عمد بيراندللو إلى تبسيط أعرق المسائل المتعلقة بالطبيعة ، تلك المسائل التي يتناولها رجال العلوم النفسية في نظرياتهم وأبحاثهم ، ويخشون أن يتخذها المؤلفون ،

مادة في مسرحياتهم . فالعادات والأخلاق والأوضاع الاجتماعية وما اتفق الناس عليه من قوانين ونظم ، وأثر ذلك كله في الواعية الخفية والحياة اليومية ، وتضارب العواطف والأفكار والإحساسات التي تنتقل من العقل الواعي إلى الباطن وبالعكس ؛ كل ذلك استغله بيراندللو وجعل منه مادة خصبة في مسرحياته . وهكذا أرغم الجمهور على الاعتراف بنزعة التجديدية ، تلك النزعة التي تتمثل في النهوض بحركة التأليف المسرحي على أساس معالجة دقائق الحياة وتفصيلاتها وبواعث غموضها ، وليس على قوة المفاجأة وعنف الحوادث وروعة المناظر المسرحية ، ثم على « الخاتمة السعيدة » التي تهدي من روع النظارة وتنسبهم همومهم وأشجانهم ، كأن الحياة كلما تعقدت في وجوه الناس أخذ الكتاب المسرحيون على عاتقهم إظهارها ساذجة في موضوعات لا صلة لها بمشكلات الحياة ومخاوفها وحقيقتها الراهنة .

وقد كان طبعياً أن يوجه شيء من اللوم إلى فن بيراندللو الذي قلب الدراما رأساً على عقب ، فقالوا إن الموضوعات التي يطرقها لا تستند إلى الواقع في شيء ، إذ أنه يسير بأبطاله ويتخبط بهم في عوالم خيالية ، « فالحقيقة » عنده ضائعة ؛ لا ظل لها . والصحيح أن الحقيقة المطلقة لا وجود لها ، فقد

يكون كل شيء حقاً ، وقد لا يكون أى شيء حقاً . وإنما يتوقف ذلك على الناظر إليها ومن أية زاوية يراها . فثلاً قد أتوقف برهة وأنا أملئ هذه السطور أو أكتبها ، لأتأمل ستائر نوافذ مكتبي الحمراء ، ولكن عندما يعم الظلام ويغمر الغرفة بدكنته تصبح هذه الستائر سوداء ، وإذا ما أغمضت عيني برهة فإنها تختفي تماماً . فمن في وسعه الاعتراف بأن هذا أو ذاك هو كيانه الحقيقي ؟ فهي موجودة بهذه الأشكال والألوان كما نتصورها بإحساساتنا . إن الأشياء لها مظاهر متعددة ، فأهرام منفيس مثلاً تبدو في مطلع الفجر مخاريط من ضياء وردي ، لكنها تلوح عند غروب الشمس مثلثات حالكات السواد في سماء مصر المتقدة كشعلة من نار ، فمن ذا الذي في وسعه أن يسبر غورها ويدرك كنهها ؟ وإذا كان ذلك حال الأشياء الواقعية الملموسة فما بالك بالحقيقة غير الملموسة التي تضطر إلى خلقها من جديد في كل لحظة . والروح الإنساني والفكر ليسا إلا قوة خالقة ، وفي ذلك تنحصر مهمتهما . أليس ذلك أبهى وأروع وأجمل من رؤية الأشياء ككائنات لا حياة فيها ؟ ثم هل في وسع مخلوق أن يدرك لب الحقيقة وينفذ ببصره إلى باطنها ؟ كلا ! وإنما قد نشعر في سويغات الصفاء وما يتجمع لنا في أوقات التأمل أو الإلهام أننا نكون صورة واضحة المعالم عن

هذه الحقيقة . فالحياة إذن من صنعنا ، ونحن الذين نكيفها من وقت لآخر تبعاً لأهوائنا . ولولم تكن الحياة حياتنا فهل يتدع الإنسان عالماً لكى يوفق بين الأشياء فى هذا الكون ، ثم يركع ويتعبد له ؛ كأنما هو الذى ابتدع هذه الأشياء وصنع تلك الأصنام ؟ ! فالعالم ليس إلا ابن النظرية التى نادى بها الإغريق : أبدى التكوين ، أبدى التبديل والتغير . والحياة لا يمكن أن تقف لحظة جامدة فى مكانها ، فهى تحتاج كل ما فى طريقها دون شفقة ودون أن تنال قسطاً من الراحة لتفكر فى العواقب . أما هدوء الحياة لتمتع بقسط من الراحة أو التفكير فى العواقب فلا وجود له إلا فى مخيلتنا ، وكذلك كل شىء آخر هو من ابتداع الخيلة :

وكثير من نقاد الأدب يدعون أن بيراندللو لم يخلف وراءه مدرسة جديدة بحمل هذا الاسم ، فقد كان روائياً أكثر منه فناناً وصاحب نظريات فى النسبية السيكلولوجية . استخدم الفن الروائى والمسرح فى التبشير بها ودعوة الناس إلى اعتناقها . وفضلاً عن ذلك فإن هناك من يزعم أن بيراندللو كان يعيش غريباً عن الواقع فلا يستوحيه أو يلجأ إليه فى تكييف موضوعاته ؛ ولكن الحقيقة هى أن بيراندللو خلف وراءه مدرسة من الأدب الراقى . أما عن احتقاره الواقع فالصواب أنه يخالف

الكتاب الواقعيين . فعلى حين أنهم يسهبون في وصف مظاهر الحياة ، ويحصرون فهم في طرافة الوصف ، يقوم فنه على اختراق الواقع والبحث في أعماقه عن معنى الحياة . وهكذا يصبح الواقع عنده واسطة وليس فناً ، أى واسطة لشرح فلسفته وبث أفكاره الهدامة . وهذا ما يفسر لنا كيف إن مسرحياته ورواياته استطاعت أن تحتفظ بكل حرارة الحياة وحركتها الدائمة ، ولم تكن في وقت من الأوقات مملة أو باردة أو ثقيلة الظل كغيرها من المسرحيات التي كان يضعها الأقدمون ليرهنوا بها على نظرياتهم وأفكارهم . فبيرانداللو يشاهد الواقع ثم يفسره ، بدلا من أن يضع فلسفته وآراءه ثم ينسج حولها أشخاصاً وحوادث مفتعلة لا أثر للحياة فيها .

على أن الشيء الوحيد الذي لا يزال نقدة المسرح يوجهونه إلى فن بيرانداللو هو أنه يجزئ شخصياته ، مما يؤدي إلى هدم أساس الحياة والجنس البشري ؛ وبعض الشخصيات التي يبتكرها في عالم الخيال تنتهى حوادثها غالباً بما يؤدي إلى ضياع الفكرة التي ينشدها الفن المسرحي ، ولا سيما اعتباره الخيال حقيقة لا خطأ . ولو اعتبرنا الخيال واقعياً لوجب علينا بطريق الاستنتاج أن نعتبر الخيال والواقع متساويين من حيث الحقيقة . وعلى كل حال فإن بيرانداللو هو أكثر الكتاب الروائيين

والمسرحيين إنتاجاً على الرغم من عدم تحوله عن نظرياته التي
يخضع لها غالباً في كل ما يكتب ، فهو من أولئك الأساتذة
الذين أنتجوا للمسرح في خلال العشرين سنة الماضية أعظم
الدرامات وأبرزها شخصية .

ظهور السوبرمان

بعد أن فرغنا من استعراض عبقرية بيراندللو عن طريق
واياته ومسرحياته ، نريد أن نلخص الآن رأينا في مسرحه ، مع
المقارنة بينه وبين كاتبين عظيمين هما : إيسن وبرنارد شو .
جاء ظهور بيراندللو متأخراً ، وكان هذا لفائدة فن الدراما ،
لا في إيطاليا وحدها ، بل في العالم المتمدين بأسره . والواقع
أنه لا يوجد فن متغير مثل الدراما ، حيث ينطبق على الممثل
قول شكسبير : « إنه يروح ويغدو على المسرح ثم لا يلبث
أن يخفى فلا يسمع عنه شيء . وكل أربع سنوات أو خمس
يظهر عبقرى الدراما ، فتكون مسرحياته إما مرآيا وإما انعكاسات
أو تعبيرات للعصر الذى يعيش فيه » . ففي أعقاب الحرب
العالمية الأولى انطلقت لندن بأسرها لتشهد مسرحيات نويل
كوارد ، لأن المجتمع رأى فيها صورته الحقيقية ، صورة
المساحيق والأصباغ والبدرة ، وقد شوهتها الموسيقى الصاخبة
« الجازبند » . وعند ما شعر العالم بأنه مقبل على إصلاح جديد
وتطور اجتماعى تهافت القوم على مشاهدة مسرحية درنكوتر

التاريخية التي يدور محورها حول عظماء الرجال ، أمثال إبراهيم لنكولن . وفي أوائل القرن العشرين كان كتاب المسرح يحشون دراماتهم بالدعاية للمرأة ؛ وكذلك كل عصر له عبقرية خاصة ، ولكن في كل ربع قرن يظهر رجل عظيم تحتل مسرحياته فراغاً كان موجوداً . ومن هذا الطراز إيسن العملاق الذي كأنه انحدر من صلب شكسبيرتواً ، فإنه بعد مسرحيته (براند ونورا ؛ وسليسن وبركان) لم يكن هناك مجال لأن تظل الدراما غافية ؛ وكان عليها أن تتطلع إلى الشواهد والقسم .

لقد رفع إيسن من شأن الدراما وأعاد إلى الذاكرة المآسى الإغريقية بروعتها وجمالها ، ولزم وحدة الزمان والمكان . فلمتفرج لا ينتقل من الفصل الأول إلى الثاني بعد أسبوع أو شهر أو عام ، ولا يحمل مخيلته أن ترى الحادث ينتقل من بلد إلى آخر ، بل حافظ على هذه الوحدة ولزم هذا الشرط الإغريقي الأصيل ، فهد السبيل للكتاب الذين أتوا بعده ونسجوا على منواله . ولم يكن المسرح عنده مجرد تسلية يمضى فيها الواحد وقته ثم يخرج مرتاح البال . كلا ! لقد انتقلت الدراما على يده من أجواء الأمنى والمحيلات والأحلام ومآسى الملوك والإشادة بمزايا وصفات أبطال التاريخ ، إلى دراسة القضايا الاجتماعية واستعراض المذاهب والمعتقدات والنظم العصرية ، وبذلك علم الجمهور

كيف يفكر اجتماعيا ، وفتح أذهان رواد المسرح إلى آفاق كانت خافية عنهم ؛ فتناول في دراماته الزواج والطلاق ومركز المرأة والتدجيل السياسى والدينى ، وعالجها كلها بصراحة لم يتعودها الجمهور .

كان داعية ورسولا اجتماعيا ومعلماً حراً مؤمناً بصدق ما يكتب ، وهادياً ومرشداً للأجيال المعاصرة والمقبلة ؛ ولكنه على الرغم من كل هذا لم يكن على وفاق مع العالم الذى عاش فيه ، ولم يكن محبوباً من الدهماء ، بل باء بسخطها وغضبها . وقد أثارت الموضوعات التى عالجها على المسرح ضجة ، وفتحت أبواباً للمناقشة على صفحات الصحف والكتب وفى الأندية والمجتمعات ؛ ذلك أنه كان فيلسوفاً فردياً يؤمن بإرادة الفرد ، وهو فى هذا عدو لدود للديموقراطية ، وفنان أرستقراطى ، وقرين نيتشه ؛ ولذلك لم يصادف مسرحه فى البداية هوى من الأغلبية الساحقة التى لم يكف أمامها عن إثارة مثل هذه القضايا الاجتماعية وبسطها ومهاجمة العقائد الشائعة والآراء المألوفة .

ولم يلبث أن جاء شو فى إثر إيسن ليحمل رسالة الأستاذ ، وليفتح سبلاً كانت مغلقة . وقد تنكب شو طريقة إيسن فى معالجة الدراما ، ليعطى متنفساً خاصاً لعبقريته الخاصة ، فإنه علم الجمهور عن طريق المسرح كيف يفكر اجتماعيا ، وقد

استعرض جميع المذاهب والمعتقدات والنظم الحديثة وجعلها هدفاً
لسخريته اللاذعة ، ولكنه لم يكن ناقداً هداماً فحسب ، بل
كان بانياً كذلك ، ومتفائلاً يدين بالأمل في المستقبل ، وإننا
على رأيه ، بالإرادة والتطور سنصل إلى القمة . ويبدو هذا
التفاؤل واضحاً كل الوضوح في مسرحيات شو ، إذا لاحظنا
الدور النبيل الذي تقوم به النساء في دراماته . فكل امرأة من
بطلاته مثل فيفي وإيرين وجان دارك قد ورثن روح بطلات
إيسن ؛ وإن شو ، الذي كان مفروضاً أنه يكتب لعشرة في
المائة من الإنسانية السليمة النظر ، قد أعطى هذا النظر السليم لجميع
بطلاته ، فكن مثال المرأة العصرية الحقيقية التي لا تلبس مشدداً ؛
وتزاول الألعاب الرياضية كغلام ، ولا تتأخر عن أن تقول
لأبيها : ما أحققك ! إذا لم تعجبها آراؤه . والواقع أن شو يتلو
إيسن في ضخامة مسرحه ، لأنه بعمله المسرحي الفذ شيد بناء
ضخماً هائلاً على مثال صحيح .

حبت طبيعه شو بعمر طويل أنفقه في نشر الآراء الاجتماعية ،
فأصبح اسمه يغمر أوروبا ويسم عصرنا بسمة التمرد على التقاليد
ومكافحة المظالم الاقتصادية والنظم الاستعمارية وكشف الستار
عن النفاق في السياسة والأدب والدين ، والتبشير بعصر
« السوبرمان » ، أي الإنسان المتفوق الذي نحلم بأن نكونه

يوماً ما . وهو يمتاز بالفكاهة وانطلاق ذهنه من قيود العرف ، ويعالج مسرحه المسائل الاجتماعية والدينية والاقتصادية ، ويتناول الموضوعات التي تشغل بال الرأي العام وأمّهات المسائل الراهنة كالزواج والطلاق وصحة الأطفال . بل هو يحلل البغاء درساً وشرحاً ، ويعد الفقر عاراً ، والجريمة كالمرض لامتعة فيها ، وله درامات عن التربية والطب والأسرة ومستقبل الإنسان والحرب والسلام . وقد أطلق عليه أناتول فرانس « مولير إنجائراً » لفرط ما اتصف به من الحيوية الذهنية والعمل على تدعيم قوائم المسرح . ويقارن شو بين شكسبير وإيسن ، فيتهم الأول بأنه المسئول الوحيد عن انهيار الدراما ثلاثمائة سنة بعد موته ؛ إلى أن جاء إيسن لإنقاذها من حياة الجهل ، وإهمال معالجة الحياة الاجتماعية والطبيعة البشرية ؛ فقد كان العالم عند شكسبير قوة مخيلة ، ولم يكن له برنامج معين ؛ على حين أن العالم عند إيسن كان مجرد ملاحظة وتكلم بالوقائع والمحسوسات .

والآن نأتى إلى بيراندلو الذى غير نظرتنا إلى الدراما ، وإن كان بعض النقدة قد أرادوا أن ينسبوا أبوة الدراما التى كتبها بيراندلو إلى برنارد شو ، بسبب أن الوصف الذى أطلق على شو هو أنه يقف على رأسه فى مسرحياته ، وكذلك بيراندلو فى بعض مواقفه . بيد أن بينهما مشابهاً سطحية ، وهما مختلفان

تمام الاختلاف . فإن شوأرلندى بروتستانتى ، ولكن بيراندللو مسيحى مستقيم يبحث عن الحقيقة بلا مواربة ، ولو حولته مواجهة الحقيقة إلى صخر ، وإن ذكاه ذكاء متدين صارم ، لأنه يحس إحساساً واعياً بحقائق الوجود الأخيرة . وإن شو رجل من أهل النكتة ، ولكن بيراندللو رجل من أهل الفكاهة المرحية . وقد ميز أحد النقاد بينهما بهذا الوصف : « إن رب النكتة اللاذعة يرى الأشياء ثابتة الأوضاع . أما رب الفكاهة المرحية فهو الذى يراها متناقضة غير ثابتة » . ولا يوجد هناك وصف أبدع من هذا للفرقة بين الكاتبين . فإن بيراندللو يرى كل شىء غير مقيد بنظام ثابت ، وعالمه تحكمه السلطة . وقد رأينا فى مسرحه أن الأشياء التافهة جدا تؤدى إلى حوادث جسيمة ، فليس هناك ترتيب منظم مطرد يؤدى إلى عاصفة ، ولكن أقل خلل صغير يؤدى إلى اضطراب جسيم . فى إحدى مسرحياته تبدأ الدراما من قذف قشرة بيض ترميها البطلة من النافذة فتصيب اثنين من السكارى فى الشارع ، كما أن السقوط عن ظهر الجواد يؤدى إلى تغيير فى عقلية « هنرى الرابع » ، وهناك الزلزال الذى يؤدى إلى تدمير وثائق زواج السنيور بونزا . ومن ثم نرى أثر المصادفة ودورها فى مسرحه ، فطريقته تعتبر رد فعل ضد الطريقة القديمة التى ابتدعها سكاريب وسار عليها غيره...

ومن ذلك كانت مسرحيات بيراندللو نفسها غير مدعمة على نظام ثابت ، كأنها تتقدم إلينا وفي حواشيها الاهتزازات والمفاجآت ؛ وبعض مشاهدته مثلاً مفعم بالكلام المجلجل البليغ ، على حين نجد بعضها يكاد الصمت يخيم عليه ، وكأن أبطاله يلهثون ويتعثرون في الحديث ، وأحياناً يقفون ليسبحوا عن لفظ ، وطوراً يغمروننا بسيل من الكلام . ثم إننا نجد أحياناً سياق الدراما يتعقد بظهور شخصية ليست لها علاقة بالموضوع الأصلي ، وإنما جرى بالبطل ليتحدث عن آراء المؤلف الميتافيزيقية ، ولكي يكون بوقاً للشخصيات الأخرى .

إن شو يلحق بطلاته وأبطاله تعليماً عصرياً راقياً ، ولكن ليس عن طريق المدارس العامة أو حيث تسيطر التقاليد ؛ بل بالعكس فكلهم دارسون علم النفس ؛ وفي وسعهم أن يتحكموا في عواطفهم الجنسية ؛ لأنهم جميعاً من أبناء الشمال الذين يتميزون بقوة الإرادة . أما بيراندللو فهو رجل من أهل الجنوب يغرس في نفوس أبطاله غرائز أهل الجنوب ، بل هو يعطيهم أكثر من نصيبهم من الغريزة ، وقد فرض عليهم الإمام بالتحليل النفسي ، حتى إنهم في أى وقت يمكنهم استعراض أنفسهم وتحليلها بالنظر إليها ! !

خاتمة

في فجر يوم من أيام ديسمبر عام ١٩٣٦ اهتزت أسلاك البرق في شتى أنحاء العالم تحمل نعي لويجي بيراندلو ، فقد قضى نحبه نتيجة التهاب رئوى في غرفة نومه الصغيرة بروما إلى جوار مكتبه الذى طالما أنفق الشطر الأكبر من ساعات يومه منكبا عليه يعمل ويكتب دون أن يفتر نشاطه أو تخمد قريحته ، حتى وجدت الورقة الأخيرة من ذكرياته وقد خط فيها بضعة أسطر .

ونقل جثمانه على مركبة متواضعة بين المطر والزمهرير ، ثم حملته إحدى مركبات قطار البضاعة الخارجة من روما ، من غير احتفال ولا زهور ، ليدفن في مقابر الفقراء في مسقط رأسه « جرجنتى » بجوار أعمدة المعابد الإغريقية المصاوبة للبحر ، وآثار العرب الباقية على الدهر ، وحيل بين الأقارب والأصدقاء والمرئدين من إبداء شعور العطف نحوه ، فلم يشهد أى فرد منهم تشييع الجنازة بناء على وصيته ، وكل ما أسف عليه عميد المسرح عند حشرجته الأخيرة هو عدم إنجاز كتابه

« ذكريات إقامتي في هذه الدنيا على غير رغبتى » . وكأنه شعر باقتراب أجله عند ما هم في أيامه الأخيرة بتوجيه قوى إنتاجه نحو تسجيل ذكريات إقامته برغم أنفه في الدنيا . . . ولا غرابة إذا أسف بيراندلو على ترك شيء دون أن يتمه ، وهو الكاتب السريع الخاطر ، المتدفق الإنتاج ، العميق الإحساس الذى قلما يؤجل إلى غد ما يمكنه إنجازاه في يومه ، لا غرابة في أنه حاول في اللحظة الأخيرة حل أسرار الحياة عند اقتراب ساعة الموت ، فقد ظل طيلة حياته محاطاً بالأسرار ملبداً بسحب الشك ، وقد خصص فكرته الأخيرة للأسرار والطلاسم والمعميات ، فاحترمت احتراماً كبيراً .

تميز بيراندلو بميزة واحدة ظاهرة هي فضيلة الزهد ، وهي تدل بوجه عام على نظرتة للحياة واتجاهه في الكتابة والفن ، وهي التى أوحى إليه بمثل هذه الوصية التى تعد ثمرة تجاربه المرة . وإن طبيعته الحزينة المتشائمة التى غذتها أشعار « ليوباردى » لا يمكن أن تخضع لنفاق المجتمع . ولقد كان من سوء حظه أن ظهر في أواخر القرن التاسع عشر ، حيث كان عدم الصراحة هو طابع الأدب العام ، وكل أعماله الأخيرة من القصة إلى الرواية إلى الدراما ، إنما هي أجزاء من خطبة هائلة عنوانها « الموت » . ولقد كان بيراندلو ككل أبناء صقلية

يعيش متوقعاً زلزالاً يحرق العالم ؛ كان ينظر بعينه ويتأمل
 المدينة القديمة تتلوى وترنح ، وكان يخشى أن تنهار تماماً أو
 ترجع إلى الفطرة الأولى . ولقد كان آخر مؤلفاته « آدم وحواء »
 الذى أنجزه قبل أن يختطفه الموت ، وفيه وصف هذه الكارثة ،
 وصور الإنسانية وقد انهارت فلم يبق على الأرض سوى رجل
 وامرأة ، بيد أن العالم من جديد ، ويتصفان بشيء غريب يميزهما
 عن أسلافهما ، وهو أن ذكرى المدينة التى انهارت لا تزال
 لاصقة بذهنيهما ؛ ولكن هل يستطيعان أن يتجنبنا الأخطاء
 التى وقع فيها أسلافهما !!

ولقد مات بيراندللو قبل أن يفسر لنا رأيه الأخير ، ولكن
 نجمل إلينا أنه يقول فى كل عمل أدبى من أعماله : ماذا أعطى
 الناس لأساعدهم على المعاش ؟ إن الأديان تقول لهم : اعتمدوا
 على رحمة الله ! وكان يهز كتفيه باستسلام قائلاً بصوت حزين :
 ليس علينا إلا أن نتقارب الواحد بجانب الآخر لنخلق دنيا
 من الرحمة والمحبة والإشفاق . . إن الدين شيء خيالى ولكنه
 نافع إذا أمكنه أن يكبح جماح الحيوان المستكن فى أعماقنا . .
 وألا يستخدم كأداة للتمزيق والتعذيب ، أى أنه لا ينبغى أن
 يقتل بعضنا بعضاً فى سبيل الله .

وقد مات موت الجبابة القدامى قائلاً : ليس فى المسألة

غير الجواد والعربة والسائق . ولذلك لم يوص بأى احتفال ديني
 في جنازته ، وفضل أن يودع العالم خفية من الباب الخلفي ، كما
 يذهب الإنسان إلى مهمة سرية ، وكأن روحه الراحلة تقول
 مع الشاعر الإغريق :

لاتضع الزهور ولا العطور على قبري الحجري
 ولا تشعل الأضواء . . فكل هذا عبث
 أحسنوا إلى . . ما دمت حياً
 أما أن تسقوا التراب الذي أتوسده خمراً
 فإن هذا . . يجعل التراب طيناً
 على أن الميت . . لا يشرب الخمر !

المختار

من أدب « بيراندللو »
الأبكم

كان « طوطو » يشبه بوجهه القدر ، وشعره الأسود الملبد على جبهته ، وعينيه الصغيرتين الدائمتى الحركة ، دباً صغيراً من الدببة التى تهبط الوادى من الغابات الكثيفة ، فهو يجوس خلال الحقول فى الربيع ويسرق الثمر ويقطف التوت ويؤذى الحشرات الراقدة فى الشمس بالأحجار الصغيرة ، ثم يصرخ صرخات مدوية محتنقة ، تذكر الإنسان بكلاب الصيد وهى تعوى بين السلاسل فى سموم الرياح .

كان أبكم ، قطعت اللصوص لسانه وهو يرعى قطع أغنام سيده ، وكان الجوع قد عضه بنابه ، وجفت طباعه حتى لقد كان يلتذ بقتل الحشرات ، ويهيج إذا ما أزعجه الصبيان . وكان قد أسرف فى ضرب أحدهم بقسوة فتركوه وشأنه ، ولم يعد يقترب منه سوى « نينى » ، تلك الفتاة الجميلة الوديدة الهزيلة الجسم .

أبصر طوطو هذه الفتاة أول مرة تحت قوس كنيسة « سان روكو » ، وقد انزوت في ركن منفرد تلهم قطعة من الخبز ، فنظر إليها بجشع وهو يتلمظ ، فرفعت الطفلة إليه عينيها الصافيتين صفاء سماء سبتمبر ، وقالت له في صوت رفيع . . هل لك فيها ! فاقرب منها مبتسماً وتناول قطعة الخبز منها ؛ وشرعا يلتهمانها في سكون عميق . ثم قابلها بعد ذلك مراراً . وهمست في أذنه مرة : من أين أنت ؟ فأشار إليها أنه لا يستطيع الكلام ، وفتح فاه وكشف عن لسانه المقطوع ، فأشاحت الطفلة بوجهها في حركة فرع . ولس طوطو ذراعها في رفق ، وقد تفرقت عيناه بالدموع ، كأنه يريد أن يقول لها : لا تذهبي أنت أيضاً . . كوني رحيمة بي . لكنه لم يستطيع أن يكتب صوتاً غريباً خرج من حنجرتة ، فأفزع ذلك الصوت المسكينة وولت فراراً .

وقابلته عقب ذلك الحادث مراراً ، وكانت تعامله معاملة الشقيق ، فيجلسان ساعات يرمقان بعضهما ، وكان طوطو يضع رأسه الأسمر الضخم على ركبتيها ، ويغمض عينيهِ من اللذة ، كما تفعل المهررة إذا ما لطف المرء شعرها وربت بيده على ظهرها ، وكانت تقص عليه في كل مرة قصة « الساحر وبنت الملك » .

« كان للملك من الملوك ثلاث بنات ، تدعى صغراهن
« إستيلىنا » . وكان « لإستيلىنا » هذه شعر ذهبي وعينان من
الأماس ، وكانت إذا ما مرت بالناس صاحوا قائلين : ها هي
العذراء . ثم يخرون سجداً » .

وكان طوطويغمض عينيه ، وقد دله ذلك الصوت الرخيم ،
ويستغرق في نوم لذيذ حالماً بإستيلىنا . وفي ذات صباح جلس
طوطو ونيني تحت قوس الكنيسة ، وقد غمرتهما الشمس
بضوءها الذهبي ، وجعلت الأجراس تفرع في الفضاء دقات
العيد ، والناس يغدون ويروحون وكأنهم خلية نحل هائلة ،
ونظرت نيني إلى قدميها العاريتين وثوبها الرث الباهت ثم
قالت : ها قد جاء الشتاء ، وسوف يتساقط الثلج عما قريب ،
وليس لنا مأوى ، وليست هناك نار . ترى هل ماتت أمك ؟ ..
فأطرق الأبكم برأسه ، ثم رفعها بعد برهة في حركة سريعة
وقد رنت عيناه نحو الأفق البعيد . ألم تمت ؟ هل هي ترقب
عودتك ؟ فحنى طوطو رأسه وبش لها وأوماً بأصبعه كأنه يقول :
لنمض إلى منزلي ، فهو هناك في سفح الجبل وبه نار ولبن وخبز .
وشرع المسكينان يسيран ويجدان في السير دون أن يقفا إلا
بأبواب القرى ، وكانا يقاسيان الجوع أحياناً ويرقدان في العراء
تحت العربات أو أبواب الزرائب ، وكانت نيني تتألم وقد دكن

لونها ، وانطفأت عيناها وتدلّت شفتاها وانتفخت قدماها
الصغيرتان ، وجعل طوطو يشعر نحوها بعاطفة من الحنان ،
فألقى بثوبه البالى على كتفها ، وأخذ يحملها على ذراعه مسافات
طويلة .

وعند ما هبط المساء ، جعللا يفتشان عن منزل يؤويهما بعد
أن قطعاً مرحلة طويلة ، وقد علا الجليد الأرض قدر شبر ،
وأخذ الثلج يسقط مدراراً والرياح تعوى وترجرجر ، فالتفت طوطو
وطوى نينى بين ذراعيه كأنها حبة صغيرة .

وكانت المسكينة ترتعد من الحمى والبرد ، وتأوهاها الهزيلة
الشبيهة بعواء القططة تخترق صدر طوطو التعس ، نافذة كطعنات
سكين ، لكنه كان يسير ويسير ، وهو يشعر بنبضات قلوبهما ،
وتصلبت ذراعا الطفلة الملتويتان حول عنقه ، وتبدل رأسها جانباً ،
فصرخ صرخة خيل إليه كأن شرياناً من شرايين صدره قد
انفجر ، ثم ضغط بقوة على ذلك الجسم البارد وسار في السهل
السحيق بين الثلج المتساقط وصفير الرياح مستوحشاً كذئب
جائع .

ثم سار إلى أن تصلبت عضلاته وخذت أنفاسه . . فهوى
وجهة نينى على صدره . . ثم مرت الأيام وغطاهما الجليد .

العظيم الراحل

كان مسجى على فراشه الوثير ، فى غرفة نومه الأنيقة المطلة على البستان ، وقد أراح عنقه الضخم على الوسائد اللينة المحشوة بريش النعام ، حتى لا تخمد أنفاسه الذبجة الصدرية التى فاجأته منذ أسبوع ، وكان الطبيب قد احتاط للأمر فأمره أن لا يأتى بأية حركة ، وأن يظل فى موضعه كجثة محنطة فى مقبرة فرعونية .

وتطلع الرجل العظيم « كونستانزورامبرى » من خلال أهدايه المقوسة إلى شعاع الشمس ، وقد تسلل من السجوف المسدلة على النافذة ، ثم بسطت خيوط الشمس أشعتها على ركبتيه ، فوق الرداء الرمادى الذى نشرته الممرضة حول نصفه الأسفل . رأى بعين الخيال أنه يحتضر ، بعد أن فقد الأمل فى الشفاء ، فقد كان الداء يحز فى صدره ويتحكم فى أنفاسه ، فأرغى أهدايه وكف عن مد بصره إلى أبعد من حافة السرير ، ولم يفعل ذلك خوفاً من دنو النهاية واقتراب المصير المحتوم ، وإنما خوفاً من أنه إذا مد نظره مسافة أطول اتسع أفقه لذكريات

لا يحب الساعة أن يثيرها . ثم انطوى على نفسه وقبع في حدود
خياله ، شاعراً بأن الطمأنينة ترفرف بجناحيها فوقه ، واستغرق
في تأملاته ، محدوداً بصره بأطراف الشال الذي تنثر عليه الشمس
ذهبها وتبرها ، وطفق يستوعب بطء الدقائق ومرور الساعات ،
وأنشأ يفكر خلال هذه الساعات الباقية من عمره ، لا في
الموت ، ولا في المجد الذي لم يكد يصل إليه حتى أفلت من
بين يديه بعد ما رصد له من جهد ووقف من شباب وبذل من
خفض ومن لين ، وإنما جعل يتصور ما سيحدث له عقب أن
يلفظ أنفاسه الأخيرة . أجل ! سوف يتركون جثمانه مسجى
على هذا الوضع وفي الفراش نفسه ، وسوف تشعل الشموع
ويحرق البخور ويغرق في طوفان من الزهور والأكاليل . إنه
سيموت وحيداً كما عاش دائماً وحيداً ، في منتصف العقد
الحامس ؛ وسوف لا يعنى به سوى « نونيس » سكرتيه ،
فيتولى بنفسه إغماض عينيه للمرة الأخيرة ، وينضو عنه ثيابه
ليلبسه ثوبه الرسمي ، ويضع في قدميه حذاء أسود يلمع كوجه
الزنجي ، ولكن أية مية يموتها ؟ ! إنه يموت كالحمقى
والمعتوهين . لقد أنفق حياته في العمل ، ولا شيء غير العمل ،
لقد ناضل في الحياة نضالاً أدى إلى تهلكته ، ومع أنه انتصر
في النهاية وارتقى أول درجة في سلم المجد ، غير أن هذا الانتصار

لم يدم سوى أيام ، أو إن شئت أسابيع ، فقد سرى المرض واستشرى الداء في جسده ، فلما صدر المرسوم بتشكيل الوزارة ، ومضى مع زملائه ليحلف اليمين بين يدي جلالة الملك أبدى ارتياحه بأنه توج مجهوده السياسى ، وأحاط به الصحفيون وتكالب عليه المصورون وتقاطرت لتهنئته وفود النواب وسكان دائرته الانتخابية ، لم يراعوا حرمة راحته ، ولم يتركوا له وقتاً يفكر فيه ويتدبر ، حتى أيقن سلفاً بأن المنية قد جاءت مع الوزارة . وبعد شهرين ، حينما كان فى مكتبه بالوزارة يلبي صليل التليفون ، ويرد أصحاب المطالب والطامعين ، ويوقع على هذه الورقة ، ويحجب على هذا السؤال البرلمانى ، إذ أحس فجأة ضيقاً فى صدره وأزمة فى قلبه ، فوقع مغمى عليه فوق الأوراق والأضابير ، وبين الحجاب والموظفين ، ثم حمل إلى داره . وبعد أيام نقلوا إليه فى رقة وأدب أنه مراعاة لصحته يحسن به التنحى عن الوزارة .

إنه يذكر تماماً ساعة أن صدر المرسوم بإسناد وزارة الأشغال إليه ، فقد حملت عليه صحف المعارضة حملات مغرضة شعواء ، ونعتته بأنه صنيعه رئيس الوزارة وريب القصر ، وأن تعيينه كان بطريق المحسوبية ، ولكن ماذا عساها تقول بعد موته ؟ لعلها ستعد موته خسارة وطنية ، وتطالب الحكومة بأن تجعل يوم دفنه

حداداً وطنياً ، وسوف ترثيه رثاء حاراً وتشيد بمناقيه ، وكيف أنه لم يدخر وسعاً في خدمة وطنه ، وكيف كان يحافظ على حضور اللجان البرلمانية والمناقشة بحماسة في المسائل القومية ، ثم يتوسط كلمات الرثاء رسمه وعلى صدره الأوسمة والنياشين . وامتد الخيال بصاحبنا وهو متدثر في رداءه فوق السريير فنصور رئيس الوزراء والوزراء وموظفي القصر الملكي ورؤساء الدين والنواب وكبار الموظفين وقد وفدوا جميعاً من العاصمة يحيون جثمانه ، رآهم بعين الخيال صفوفاً صفوفاً ، قبعاتهم في أيديهم ، وهم يتبادلون كلمات مقتضبة ، ثم يتسللون لواذاً إلى مخدعه ويقفون دقيقة أو اثنتين أمام جثمانه في خشوع وتأمل ، ويستمتطرون الرحمة عليه ، ثم ينسحبون إلى الغرفة المجاورة . ويحضر « الحانوتي » ووراءه اثنان أو ثلاثة ، وعلى أكتافهم التابوت المصنوع من خشب الكستناء المصقول ، وتصل فجأة برقية من مسقط رأسه « فالدانا » بصقلية ، تلك المنطقة التي انتخبته نائباً عنها في البرلمان خمسة عشر عاماً متوالية ، لتطالب برفاته ، وعندئذ تكون روحه قد طارت وحلقت في الفضاء وصعدت إلى بارئها .

فلما لجج الخيال بصاحبنا إلى هذه النقطة بالذات تهجم وجهه وأغمض عينيه نصف إغماضة ، إذ جزع لمجرد هذه الفكرة

الطارئة التي عبرت بذهنه . فكرة . . هل تنفي الروح بفناء
الجسد ؟ وعندها ، أشار إلى سكرتيه وكان قابعاً في مقعده ،
أن يناوله كوب ماء ، حتى إذا ما بلل شفتيه ورطب لسانه عاد إلى
تأملاته وإلى مواصلة تخيلاته . . . سوف يصرح رئيس الحكومة
بأن الجنازة ستكون على نفقة الدولة ، ها هو ذا الحثمان يشحن
بقطار المساء إلى مسقط رأسه بعد أن أغلقوا عليه النعش
ودقوا آخر مسمار فيه ووضعوا النعش داخل تابوت من الزنك ،
وها هو ذا التابوت يحمل على أكتاف رجال البوليس وينزل
الدرج ويحتاز الحديقة ثم يعبر الشوارع . وها هم أولاء الوزراء
وأعضاء البرلمان وكبار الموظفين يسرون وراءه حاسرى الرؤوس ،
ومن ورائه جماهير غفيرة تشيعه إلى محطة سكة الحديد ، في
حين توضع في مركبة أخرى أكاليل الزهور التي يبعث بها
الملك ومجلس الوزراء والهيئات التشريعية والتنفيذية والبلدية .
وبعد أن أشرف الوزير رامبرتي بعين الخيال على تابوته وهو
يودع مركبة سكة الحديد المخصصة لنقل الموتى ، انتقل به
الخيال إلى محطة فالدانا ، حيث رأى العمدة ورجال الضبط
وأعضاء البلدية وتلاميذ المدارس والجمعيات الخيرية وقد اتشحوا
بالسواد ، يستقبلون الحثمان بالأعلام والأكاليل . وكان رئيس
البلدية قد أعلن منذ الصباح أنهم قرروا إطلاق اسم الفقيد

على ميدان « البوستان » تخليداً لذكراه وتقديراً لخدماته . ويبدأ سير موكب الجنائز حيث تحمل التابوت مركبة تجرها ثمانية جياد تسير في هواده ولين ووقار كأنما تريد أن تمنح راكبيها وقتاً كافياً ليحظى بآخر مرحلة من مراحل المجد الذي لم يستمتع به في حياته .

كان هذا بعض ما تخيله الوزير وهو يحتضر ، فلما كانت الساعة الرابعة صباحاً ، نهض سكرتيره ، وكان التعب قد هذه فنام في مقعده ، ومضى يستطلع حالة المريض فإذا به جثة باردة لا حرارة فيها ، فكاد يجن من الأسى والحزن . ولم يدر أمات الوزير خلال نومه أم مات في ساعات يقظته وتأملاته ؟ ! وهرع إلى العمدة ، وأيقظوا عامل التلغراف وبعثوا بالبرقيات إلى هنا وهناك ، وبحثوا عن رداء الوزير الرسمي فلم يجدوه ، وأخيراً عثروا عليه في إحدى الحقائب . وبعد عناء ألبسوه أياه ، ثم اضطروا فيما بعد إلى خلعه لأن طبيباً خاصاً وصل من العاصمة لتحنيط الجثة ، واحتشدت الضاحية بالسيارات التي وفدت عليها تحمل الوزراء والعظماء والصحفيين والمصورين ، فكان هؤلاء الرجال الذين أنهكت قواهم مشكلات السياسة والعمل اليومي المتواصل قد روحت عنهم هذه النزهة الخلوية ولو كانت لدفن عظيم ؛ وتنسموا هواء الضاحية المنعش ولو من وراء جثة .

وجرت مراسيم الجنائز كما تخيلها الوزير الراحل قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة . . . ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان وما لم يخطر ببال الميت ، فإن الجثة ما كادت توضع في مركبة القطار حتى جاء عامل من عمال سكة الحديد وألحق به مركبة أخرى تحمل شارة « عربة الموتى » وكان نونيس سكرتير الوزير على إفريز المحطة بعد أن غادره المشيعون ، فتسائل في دهشة عن يكون هذا الجار المجهول ، فسوف يقضيان الليل جنباً إلى جنب بين صغير القاطرات ودوى العجلات وبين أصوات اللقاء والفراق .

كان الميت الآخر مجرمًا مات في السجن ، فتعهد أهله بدفع نفقات نقل جثمانه إلى بلدته ، وفي إحدى المحطات الرئيسية وقف القطار قبيل الفجر ، وتقدم عمال السكة الحديدية فحاولوا مركبة المجرم ، بطريق الخطأ ، إلى فالدانا تتبعها مركبة الأكاليل والزهور ، أما مركبة الوزير ، فألحقت بالخط الفرعى الذى يسافر منه القطار إلى بلدة المجرم ، حدث كل هذا والوزير فى تابوته ، لا يستطيع فككاً ولا احتجاجاً . وحمل تابوت المجرم بين الأعلام والأكاليل والزهور . واستقبله على محطة فالدانا رجال الهيئات الرسمية ووفود الأقاليم ، وحمل النعش فى المركبة ذات الحياض الثمانية ليشيع إلى مقره الأخير ،

وسار الموكب في جلال ووقار ، وعند المقبرة الفخمة التي كانت
معدة ليهبط في جوفها جثمان الوزير ، أودع تابوت المجرم بين
الخطب الرنانة وترتيل الكهنة والأناشيد الباكية الحزينة من
التلاميذ ، واستمطار شآبيب الرحمة من الجميع .

مهزلة الحياة والموت

حينما توفي السنيور « أمبرتو كاستلاني » كان عمر « نينا » يناهز ثمانية عشر شهراً ، أما « نيني » فلم يكن قد ولد بعد ، وإنما كان هناك في أحشاء أمه ، ترقب مجيئه إلى هذا العالم ، ولولا ولادة نيني لكان من اليسير أن تشق الأم طريقها في الحياة ، ترصد جهودها وتقف حياتها على تربية نينا وتنشئها تنشئة صالحة .

كانت تملك منزلاً صغيراً محدوداً يكفيها ، ولكن نيني كان طفلاً وهي لا تعرف شيئاً عن تربية الذكور ، ولذلك أخافها فكرة أن تنفرد بتربية طفلها وتدفع به إلى الحياة ، ليس لها أخ ولا أهل يحضونها النصيح ويمدون لها يد المساعدة ، لذلك — عند ما تقدم أول طالب زواج ، وكان اسمه « أرمنيودل دونزيلو » — رحبت به ، ولا سيما أنه قد وعدها بأنه سيكون خير أب لطفلها معاً .

كان أرمنيو يعمل مدرساً في مدرسة الصناعات والفنون ، وكان شاباً بائناً الطول . . نحيلاً . . يتهدل شعره الممشوط

على أذنيه ، ذا شارب منتفش ، وكان يضع عوينات على عينيه ، وينبث من عنقه الدقيق صوت عذب رخم ، وكان بارعاً في الحديث ، يكثّر من الإيماءات والحركات الرشيقة والبسمات المشرقة .

ولم تكن الأم تفكر عند ما أقدمت على الزواج به ، أنها سوف ترزق بأطفال آخرين ، وإنما كان همها منحصراً في رعاية طفليها والقيام على حسن تربيتهما . وقبل أن يمر الحول على زواجها ، حملت الأم ، وكانت ولادة عسرة مضنية ؛ ورقدت في فراشها بين يدي الطبيب ترقب المعجزة ، وسأل الطبيب : أيهما ينقذ . . . التوأمين أم الأم ؟ ولم تأت التضحية بنتيجة ما ، فقد لفظت الأم أنفاسها الأخيرة وقضى التوأمين نحبهما قبل أن يستمتعا بنور الحياة .

وهكذا تركت الأم نينا ونيني تحت رحمة القدر ، وأصبحت في رعاية شخص آخر لا يعرفان اسمه ولا يعلمان ماذا يصنع في منزلها ، ولم يكن يدرى على وجه التحقيق ماذا يصنع ، فهذا المنزل ليس منزله ، وهذان الطفلان ليسا طفليه ، وكثيراً ما وجه إلى نفسه هذا السؤال ، وهو يشفق بدموعه أمام الجيران الذين أقبلوا يواسونه ويرفهون عن الطفلين بقطع الحلوى والشيكولاتة ، وسرعان ما أصبح ترددهم على المنزل عادة ،

فهم يحلون به آناء الليل وأطراف النهار ، وقد أقاموا من أنفسهم
أوصياء على الطفلين ، وكان أرمنيو على استعداد لتوجيه عبارات
الشكر لهم وتقدير عواطفهم لو أنهم سلكوا معه أسلوباً آخر ،
ولكن هؤلاء الجيران كانوا غلاظاً قساة ، يتدخلون فيما لا يعينهم ،
وقلما يكثر من به ، أو يوجهون إليه كلمة عطف وإشفاق ،
وكأنهم كانوا يرون أن مصابه في فقد زوجه هو الجزء الوفاق والعقوبة
العادلة التي أنزلتها السماء به ، وكان عطفهم موجهاً للطفلين
الذين لا ناصر لهما ولا معين ، وقد رأوا مصيرهما معلقاً بخيط
واه ، فالأستاذ لا يلبث أن يتزوج مرة ثانية ، وستكون له أسرة
أخرى ، وهذه الأسرة سوف تسيء معاملته اليتيمين ، وربما
تموت نينا قهراً وكمداً ، ثم يلحق بها نيني إلى القبر ، وكانوا
حينما تستولى عليهم هذه الفكرة ترتعد فرائصهم من فرط الإشفاق ،
فيغمرون الطفلين بالقبلات والمداعبات والعناق ناديين سوء
حظهما .

كان أرمنيو قبل أن يبرح المنزل إلى المدرسة ، يتولى الإشراف
على إطعام الطفلين ، ويتولى تنظيفهما ، ويحرص على أن يلبسهما
ملابس نظيفة ، إرضاء لعواطف الواقفين له بالمرصاد ، فإذا ما
تهيأ للخروج أخذ بأحدهما في يده اليمنى وبالأخرى في اليد اليسرى
ويسير متاقلاً بطيئاً في مشيته كمن يمشي على شوك ، ووجهته

بيت الجيران ليودع الطفلين ، وفي كل أسرة من الجيران ، فتاة تصاح للزواج ، وما من فتاة منهم لقيته إلا تملقته بكلام معسول يفهم منه أنها سوف تكون أما رؤوماً لنينا ونيني .

وفكر الأستاذ في مستقبله وفي مستقبل الطفلين ، فهو لا يمكن أن يصبر على هذه الحال ، يذهب في الصباح إلى عمله في المدرسة ، وبعد الظهر يزور بعض الطلاب في دورهم لإعطاء دروس خاصة ، وفي المساء يقبل على تصحيح الكراسات ، بينما نينا ونيني في ضيافة الجيران يرحبون بهما ويغدقان عليهما آيات برهم وعطفهم ، ولم يكن من الميسور أن يترك عمله ويظل في البيت ليهتم بأمورهما ، ولا أن يحضر خادمة إلى المنزل ، فللجيران السنة كالسياط . وأخيراً فكر في أن يضع حداً لحياة العزوبة ، ولكن المشكلة هي كيف يختار ، فهناك أكثر من عشرين فتاة في انتظار كلمة منه ، ولكن هناك الطفلان وإن كانا ليسا طفليه ، فهو مسؤول عنهما أمام الله وأمام ضميره ، ثم المنزل وربيع مهر الزواج ، فكل هذا يخصه إلى أن يبلغ الطفلان سن الرشد .

ماذا يفعل هذا المنكود الحظ ؟ ولنتدبر موقفه ، فلو أنه اختار فتاة معينة واتخذها زوجة ، لصبت بقية فتيات الحي جام غضبهن عليه ، ولعل أشد ما كان يخيفه هو الحموات ،

وكل أم خاب أملها في أن تزوجه ابنتها ، ستغدو بطبيعة الحال بمثابة أم لزوجته المتوفاة ، وحماة له وجدة للطفلين اليتيمين . ومن أمثلة ذلك ، جارتها « ميننفا » فهي لا تفتأ تتردد على المنزل كل صباح ومعها كريمتها « روميلدا » لتضمن إيواء الطفلين عندها أثناء النهار ، وتحول دون إعارتهما للغير . .

— أعرنا أيها الأستاذ نينا . . . وكذلك هذا الملك الصغير نيني .

— ولكن يا سيدتى العزيزة . . . حقيقة إنى أستطيع . . . ولكن . . .

— لا تشغل بالك يا أستاذ . . سيكونان في حرز حرير معنا . . ولا يمكن لمخلوق أن يشملهما برعايته مثلنا . . إن روميلدا تعبدهما عبادة . . وكذلك أخوها الصغير « توتو » ، أتركب الحصان الخشبي يا نيني ؟ هل تسرك الدمي الجديدة يانينا ؟

وفي الوقت الذى ينصرف فيه الأستاذ إلى إلقاء دروسه فى المدرسة ، تكون نينا ونيني ، فى كنف الجيران ، وهم يلقنونهما أفضع الدروس . .

— ماذا ستفعلين غداً . . مع امرأة أبيك ؟
فتتوقد عينا نينا وتصبح وهى مهتاجة ثائرة ، ملوحة بقبضة

يدها في الهواء ، وتضرب الأرض بساقيها المعوجتين .

— سأقتلها . . سأفعل ذلك . . أجل سأفعل .

ويردد نينى ، كالمعتوه ، محاكياً أخته :

— نعم نقتلها .

— أجل يا حبيبتي . . هذا ما يجب عليك أن تفعله . .

فهذا المنزل متروك أنت ونينى . . وكذلك بائنة الزواج ، نحن

هنا لنمذكما بالمساعدة . . ونشد أزركما ونمحصكما النصح . .

فلا تخشيا شيئاً .

ومر عام ، ورأى الأستاذ أن حياته لا يمكن أن تستقيم

على هذا الوضع ، وأخيراً وقع اختياره على أرملة اسمها « كاترينا »

كانت تقيم في مدينة أخرى ، وكانت تمت بصلة من القرابة

إلى قسيس الأبرشية ، فافترن بها . كانت هادئة متواضعة ،

كريمة الخلق ، وكان من عادة الأستاذ قبل أن يغادر مسكنه

في الصباح ، أن يوصيها خيراً بالطفلين قائلاً : يا عزيزتى

كاترينا . . اهتمى بالطفلين ، واذكرى أن عيون الجيران ترقبك

وتلاحقك .

وبعد أن يبرح الأستاذ الدار ، تدور مثل هذه المناوشات :

— شعرك يا نينا أشعث . تعالى لأتولى تمشيطة وتسريحه .

وتلوح نينا بقبضة يدها وتصيح :

— كلا . . لا أريد تسريح شعري اليوم .

تعال يا نيني لأغسل لك وجهك وأنظفه من بقايا الحلوى . .
تعال وبرهن لأختك على أنك ولد صالح .

— ليس اليوم . . لا أريد أن أغسل وجهي .

فإذا دنت كاترينا منهما ، ثارت ثائرتهما وارتفع صياحهما ،
ويتبادل الحيران النظرات ، ثم لا يلبث أن يدور مثل هذا
اللفظ . . .

— إنه شيء مؤلم ، فظيع . . كيف تسول لها نفسها ضرب
طفلين لا حول لها ولا قوة ؟ ! أدركهما يا رب برحمتك .
وإذا تركتهما كاترينا وشأنهما ، ادعى الحيران بأنها تهمل الطفلين
ولا تلتق بالآ لشأنهما ، فنینا شعرها أصبح أشعث ككلبة ضالة ،
ونینی أصبح قدراً كخنزير .

وفي بعض الأحيان كانت الشراسة والميل إلى المعاكسة ،
يملكان نینا ، فتهرب من المنزل حافية القدمين وعليها غلالة
رفيقة ، ثم تجلس على عتبة المنزل وقد وضعت ساقاً على ساق ،
وأسدلت صفائرها فوق عينيها ، فإذا مرت بها جارة أعلنتها في
وقاحة بأنها معاقبة .

ويحذونیني حذوها ، فيجلس إلى جانبها ، وفي يده قصيرته ،
ثم يعلن في بلادة وجهود بأنه مثلها معاقب .

وتتقاطر نساء الحى وتصيح واحدة منهن سليقة اللسان :
 — تأملن هذين الملكين . . كيف تقدم على أن تعريهما فى هذا
 الشتاء القارص . . لتعرضهما للإصابة بالالتهاب الرئوى . . .
 وبذلك تتخلص منهما .

وفى ذات مساء ، عاد الأستاذ من مدرسته ، فأمضه أن
 يستقبله الجيران مولولين صائحين ، ملوحين بقبضات أيديهم
 فى الهواء ، وعلى رأسهم توتو وأمه نينفا ، وقد وقف خارج
 المنزل شرطيان ، بعد أن اشتكى الجيران من أن زوجة الأب
 تستعمل القسوة مع الطفلين ، وساء الأستاذ أن يجد كاترينا
 حبيسة غرفتها ، وهى تنشج باكية بعد أن ضاقت ذرعاً
 بتقويم سلوك الطفلين ، كان الأستاذ يدرك أن سبب المصائب
 التى تتوالى عليه هذان الشيطانان الصغيران ، اللذان قررا
 مصيره ، فعقب أن مات أبوهما ، تزوجت أمهما من أجلهما ،
 ثم توفيت ، وتزوج هو من أجلهما . والآن جاء دوره ليموت
 حسرة وكمداً ، ويتركهما لكاترينا ، فتتزوج هى من أجل
 الطفلين ، ولكنها سوف تموت ، ويقترن زوجها بأخرى ،
 وهكذا ستمر بالمنزل حلقة لا نهاية لها من الأزواج بسبب
 هذين الطفلين اليتيمين .

واشتدت وطأة المرض على الأستاذ ، وقبل أن يفارق الحياة ،

لفظ في أذن زوجته في صوت ضعيف :

— أنصحك يا عزيزتي بأن تتزوجي بعد وفاتي . . وليكن
زوجك القادم . . توتو ابن نينفا ، لا تخشى شيئاً . . فإن
هذا الأمر لا يطول . . ستضيقيين ذرعاً وستلحقين بي قريباً . .
وسيتزوج توتو مرة أخرى . . وسرعان ما تدركه الوفاة . .
وكل هذا من أجل طفلين .

في أثناء ذلك كانت نينا ونيني ، يلعبان في منزل الجيران
ويلهوان ببيعاء وقطة ، فتمسك نينا بالقطة من رقبتها وتصبح :
— سأخنقك أيها القطة .

فيتجه نظر نيني إليها في بلادة ، ويردد محاكياً لهجتها . .
— نعم نخنقها . . ! !

ستر العرايا

لبيراند للو مسرحية عنوانها « ستر العرايا » وهى ليست أقوى دراماته وإنما تعد أجمل فرائده ؛ وقد كتبها مدفوعاً بذكريات خاصة وانفعالات وقعت فى محيط أسرته .

والدرامة فى حد ذاتها مؤلة ومخيفة — مؤلة لأنها تمثل لنا فاجعة فتاة مثقفة فى العشرين ربيعاً هى أرزاليا دارى ، فيها جمال وسحر يجذبان كل مخلوق إليها ، بيد أنها تسيء الظن دائماً بالحياة ، فهى لا تؤمن بوجود شيء اسمه الأمل أو السعادة أو الحظ ، وهى مصابة بنوع من التهافت العصبي يجعلها متشائمة كل التشاؤم ، مسرفة فى الشك إلى أبعد مداه ، حتى إنها شرعت فى الانتحار ، ولكنها أنقذت فى آخر لحظة بأعجوبة ، وقد تألب على هذه الفتاة العشاق والأصدقاء ، فهناك مخدموها الثرى الذى يرغمها على أن تظل محظيته ، ثم خطيبها الضابط البحرى الذى يرغبى الاقتران بها ، وهو لا يهواها ، ولكنه يخيل إليه أحياناً أنه يهواها . وهناك أيضاً الصحفي الذى يتخذ من حادث انتحارها مادة يسود بها صفحات جريدته ، والكاتب

القصصى لود فيكونوتا الذى يؤويها إلى داره لأنه وجد فى مأساة حياتها موضوع رواية طريفة يزجها إلى قرائه ، ففضى إلى المستشفى وقد دفعه فضول الفنان إلى أن يتعرف ببطله الحادث ، وبعد أيام استطاع أن يقنعها بالانتقال إلى داره ، يستضيفها ويقف منها على معلومات أدق وأجدى . . .

لودفيكو : ذكرت لك أن عاطفة جائحة تولت كيانى وسيطرت على مشاعرى حين طالعت فى الصحف نبأ فاجعتك ، لكننى ما شعرت بتلك العاطفة لأكتبها بل لأحيها ، فالقصة يا صغيرتى تقوم على أحد أمرين : إما أن يكتبها المرء أويحيها ، ومع كل فإنه بمجرد اطلاعى على حكايتك فى الصحف كنت قد تخيلتها بنفسى من البداية إلى النهاية .

أرزيلىا : تخيلتها ، كيف ذلك ؟
لودفيكو : بأسرع من لمح البصر ، فى أدق تفاصيلها ووقائعها العجيبة ، ياله من موضوع قصة طريفة ! فهناك فى مدينة أزمير ، فى ذلك القصر المنيف المشرف على شاطئ البحر قصر القنصل جروتى ، حيث كنت تعملين فيه معلمة للطفلة ميميتا ، ثم فى

الشرفة التي هوت منها الطفلة على صخور الشاطئ
وقضت نحبها ، ثم فى طردك من القصر ، وسفرك
إلى روما — ثم اكتشافك خيانة خطيبك الضابط
البحرى فرانكولا سيبجا وتأهبه للاقتران بأخرى .
فى كل هذا اكتشاف مروع ، لقد تخيلت كل
شئ بنفسى قبل أن أراك ، وقبل أن أعرفك كنت
قد أعددت بناء قصتك بأكملها .

أرزيلىا : وفى أى صورة كنت تتخيلنى ؟

لودفيكو : ولماذا تصرين على معرفة ذلك ؟ إنى أفضلك الآن
ألف مرة كما أنت ، على تلك المرأة التى تخيلتها
بطلة لقصى .

أرزيلىا : إذن فهذه القصة ليست قصتى ، وإنما هى قصة
امرأة أخرى .

لودفيكو : بالطبع ، إنها قصة المرأة التى تخيلتها .

أرزيلىا : وهل هى تختلف عنى كثيراً ؟

لودفيكو : إن المرأة التى تخيلتها بطلة للقصة ، تمر بمخيلتى
وقد عصفت بها مرارة اليأس من فرط ما تعانى
وهول ما تلقى من ضيق وبؤس ، فتتجه بنظرها
ذات ليلة نحو المرأة التى تزين غرفها فى الفندق ،

وهي متهافئة الأعصاب ، وعندئذ تومض في رأسها فكرة هوجاء تدفعها إلى الانتحار ، فقد عضتها الفاقة بنابها الأزرق ، وهي لم تعد تملك من حطام الدنيا سوى دراهم معدودات ، في حين أن صاحب الفندق يلح طالباً الحساب المؤجل . . . لقد أضحت حياتها سلسلة إخفاق ، وأخيراً استولى اليأس عليها ، فشرعت في الانتحار .

أرزيليا : ولكن هذه النقطة بالذات لم تذكر في سياق النبأ الذي نشرته الصحيفة عن حادث انتحارى .

لودفيكو : لقد تخيلت كل ذلك ، ألم يكن ما تخيلته قد وقع حقاً ؟ . . . أصغى إلى ، لقد تعاهدنا على العيش معاً ، وعلى تأليف قصة طريفة هي الآن حلمنا الجميل ، أتصورين أنه إذا انطلقت إلى الشارع بعد لحظة ، ثم صدمتنى سيارة بطريق المصادفة ، يكون الشارع قد خنق ذلك الحلم في مخيلتك ؟ ومع كل فقد سبق أن ألفت حياتك تبدل وتنقلب رأساً على عقب بتأثير مصادفة طارئة ، وأعنى بها سقوط الطفلة من الشرفة .

أرزيليا : ما أقسى أن يخدم المرء وأن يطيع ! وأن لا يكون

بين الناس شيئاً مذكوراً ، بل ثوباً خلق للعمل ،
 يعلق كل مساء إلى مسمار الحائط !

لودفيكو : ولكنك لم تصبحي بعد ذلك نكرة ، بل أصبحت
 المخلوقة التي تستدر الشفقة والثناء ، والتي هزت أوتار
 القلوب ، قلوب ألوف القراء الذين طالعوا حادث
 انتحارك منشوراً في الصحف .

تتلاحق الحوادث بعضها في إثر بعض ،
 فالصحفي ألفريد وكننتفالي جاء ليفضي إلى أرزيليا
 بأن مخدومها قدم من أزميز ، وأنه زار إدارة الصحيفة
 مطالباً بتكذيب الحادث لزوج اسمه فيه ، وهو
 يهدد برفع الدعوى على الصحيفة بتهمة القذف
 والتشهير ، والضابط البحري قدم لمقابلة أرزيليا ،
 بغية أن يكفر عن خطئه الشنيع ونكثه بالعهد الذي
 سبق أن قطعه لها ، ولكن أرزيليا ترفض أن تراه ،
 وتصر في كبرياء على الرفض ، وهنا تدور المناقشة
 التالية بين الضابط والكاتب القصصي .

فرانكو : إن أرزيليا قد غرها أن يستضيفها كاتب عظيم
 مثلك ينقل إلى عالم الفن تلك القصة الخيالية ،
 قصة انتحارها في سبيل الحب ، فهي تتشوق

لودفيكو

بالأكاذيب، وأنت الذي يسجلها ويصوغها للناس .
 ليس هناك من باعث يدفع تلك الفتاة إلى الكذب
 في لحظة كانت فيها مشرفة على الموت . فالكذب
 قد يفيد في الحياة ، أما بعد الموت فما الفائدة التي
 تجنيها منه ؟ ومع كل فلتكن القصة حقيقية أو
 مختلفة ، ماذا يهم ؟ قد تسوء القصة بالنسبة إليها ،
 بيد أنها جذابة فيما يختص بقلمى ، على أن هذه
 القصة كما هي في اضطراب وقائعها واختلاف
 تحاليلها النفسانية زادت في عيني جمالا ، وأرائى
 أشد ما أكون فرحاً بوضوح كل شيء في خاتمتها ،
 فإن في مكنة أى كاتب ملهم أن يتخيل لقصته
 ختاماً ، حتى لو خلت هذه القصة في عالم الواقع
 من ختام .

فرانكو : وهل في عزمك أن تحشرنى أنا أيضاً في زمرة
 أبطال قصتك ؟

لودفيكو : بالطبع ، وأرجو أن تطمئن أيضاً من هذه الناحية ،
 فإن طائفة النقاد سوف يتكفلون بالدفاع عنك
 ويدعون بأن كل ما سردته ورسمته زائف .
 وتدخل أرزيليا إلى حيث كان الرجلان يتناقشان

في حمية وحماسة ، وتتجه من فورها إلى لودفيكو
تشكو إليه وتتألم باكية .

أرزيلىا : ماذا ترى في لو كنت اختلفت عن المرأة التي
تصورتها بطله لمسرحيتك ؟ لكم تمنيت أن أكون
امرأة خيالك وأحلامك ، أو أن أكون تلك الضحية
تحيا بعد موتها في قصة من قصصك ، بيد أن
هذا الحلم أصبح الآن بعيد التحقيق ، فالحياة لا
تريد مفارقتي ، والجميع هنا في أعقابى يطاردون
الفريسة .

ويقع نظرها على خطيبها السابق فتنتفض ثم
تقف أمامه لتعترف له في لهجة من تريد أن تعذبه .

أرزيلىا : ما دمت تجهل تفصيلات نبأ انتحارى فسأجعلك
الآن تلم بكل شيء . سأصارك بكل ما تشوق
للوصول إليه ، فإنه حدث قبيل خروجى من
الفندق ، في ذلك اليوم المشؤم ، يوم إقدامى على
الانتحار ، أن خلوت إلى نفسى لحظة ، ووازت
بين الاشمئزاز الذى نالنى ليلة سقوطى ساعة أن
هبطت إلى الشارع ووهبت جسدى لأول عابر
سبيل وبين حياتى الراهنة ؛ ولكن هل كان ثمة

فائدة أجنيتها من معاودة الكرة ؟ لم تسعفني ذاكرتي
 بالجواب ، بل نهضت إلى المرأة وبعثت على
 وجهي شيئاً من البدرة ، ودسست في حقيقتي أنبوبة
 السم ، وأخيراً هبطت إلى الشارع وجعلت أسير
 على غير هدى وأنا محمومة حيرى ، إلى أن صادفت
 مقعداً حجرياً في أحد الميادين ، فتهاكت عليه .
 وإلى تلك الساعة لم يكن فكري المضطرب قد
 استقر على رأى ما ، فقد كان في وسعي أن أعاود
 المحاولة ، ولو أن المصادفة ساقت إلى عابر سبيل
 في تلك الآونة فرقت في عينيه أوراق هولى ،
 فلست أدري هل كنت أمضى معه أو أرفض له
 طلباً . وفي النهاية لحقني تائب الضمير فقهرت
 اشمئزازى من العار وآثرت الموت .

فرانكو : إذا كنت ترومين الاعتراف بأنك كنت ضحية
 قسوة الآخرين ، فلماذا تأبين على أحد هؤلاء القساة
 وقد أضناه تقريع الضمير أن يكفر عن قسوته
 نحوك ؟ .

ويلقاها مخدومها القنصل جرونى ، وهو لا يكاد
 يخلو بها حتى يلومها على تزويدها الصحف بهذه

الأنباء التي تلوث سمعته كرجل من رجال السلك
الدبلوماسي ، وتضر بمركز أسرته ولا سيما بزوجه ،
وأخيراً يستوضحها الباعث لها على الانتحار ، وهل
كان لوخر الضمير دخل في ذلك .

أرزيلىا : إن من كان على طرازك ، ليس في وسعه أن يتحمل
وزر ضميره ، لأن لديه من المال ما يعينه على
احتقار ذلك . أما أنا فقد ألفت نفسي ذات يوم
في الشارع ، مطرودة من الفندق بسبب إملاقي ؛
ووجدت نفسي عارية لا أملك درهماً ، تظلمني
سحابة من اليأس والكمد ، وفي هذه اللحظة راودتني
ذكرى الطفلة التي راحت ضحية غرامنا الآثم ،
فاستيقظ ضميري ودفعني إلى فكرة الانتحار . . .

جرونى : ولكنك كنت تغرمين بي فيما مضى وتستثيرين ما
كمن من عواطفى ، فلماذا تنفرين وتزورين عي
الساعة ؟ ! .

أرزيلىا : كنت أبغضك بقدر ما كنت تغمرنى بالقبل ،
لكم تمنيت لو مزقت جسدى . إنك لم تفز بقلبي
يوماً ما ، إن هذا القلب كان يدمى كلما أقبلت على
اللذة معك ، فجسدى هو الذى كان يستسلم إليك

أما قلبي فهو لا يزال ملكي وحدي .

جروني : « ينجيها ويركع عند قدميها » : أنا في حاجة

إليك ، نحن شقيان حطمتها الحياة ، فلنفس

نفسينا غراماً ، ولنندفن حظنا العاثر معاً ، تعالى إلى

صدرى فإنني لا زلت أشتهيك .

وتنتهي المأساة بأن تعاود أرزاليا الانتحار ، ثم

تخاطبهم جميعاً في صوت مكلوم . . .

أرزاليا : أرجو منكم الصمت هذه المرة . كفى تظاهراً بالشفقة

على والرحمة بي ، لم تعد هنا فائدة ترجى ، فقد

استفحل الداء وعز الدواء . . . لولم أعاد الانتحار

لما صدقني أحدكم . كان يجب أن تصدقوا في

بادئ الأمر أنني لم أكذب لأحيا ، ولكن هل

تدرى يا فرانكولم كذبت عليك عندما تحدثت

إلى البارحة عما يطوف بقلبك من عواطف جياشة؟

وكيف هرعت إلى هنا في سبيل أن تكفر عن

خيانتك نحوي ؟ وهل تعلم يا جروني لم كذبت

وبادرت بتكذيب نبأ علاقتنا الأثيمة على

صفحات الصحف؟ ذلك أن الإنسانية قاطبة تحاول

أن تتجمل وأن تبدو في مظهر يسمو بها على

حقيقتها ، وبقدر ما تكون النفوس منحطة والسريرة
 قدرة تحاول أن تتسهم ذرى النبل والشرف
 والجمال . . . أجل ! إننا جميعاً عرايا ، نحاول أن
 نستريحنا بثوب فيه شيء من الحشمة ، فنكذب !
 ولم أكن أملك مثل هذا الثوب لأبد وطاهرة نقية ،
 فاصطنعت تلك الأكذوبة ، أكذوبة الفتاة التي
 تنتحر بسبب خيانة خطيبها ، لقد أردت أن أحوك
 في ساعة موثى ثوباً يكون جميلاً بعض الشيء ،
 ثوب خطيبة ، لكن هذا الثوب أمعنت الكلاب
 في تمزيقه ، وحرمتني حتى هذه التعزية البسيطة ،
 ثوب أحلامي الجميل انتزع مني ، ثوب خطبتي
 مزق ولطخ ، وأضافوا إليه وحلاً على وحل . . .
 والآن ، دعوني أمت في سكون وسلام ، من
 حتى أن لا أرى ولا أسمع ، اذهبا ، فقل أنت
 لخطيبتك وأنت لقرينتك ، إن التي انتحرت
 ماتت عارية .

هنرى الرابع

قدمت لك فى الفصول السابقة بعض الشئ عن حياة «بيراندللو» وفنه ، حتى يمكن استيعاب المسرحية التى نحن بصدددها فى يسر وسهولة .

نشرت هذه الدراما للمرة الأولى فى قالب قصصى ، فلما اتجه بيراندللو للمسرح ، صبها فى قالب يتفق ومزاجه فى فن الدراما . وعنوان هذه المسرحية ، قد يكون مألوفاً ، وقد يكون فى الوقت ذاته غامضاً ، فمن ذا الذى قرأ تاريخ أوربا ولم يسمع باسم «هنرى الرابع» ؟ ولكن أى هؤلاء يعنى المؤلف ؟ أمبراطور فرنسا ، أم ملك إنجلترا ، أم عاهل ألمانيا ؟ . . إن أهم الاعتبارات التى دفعت بيراندللو إلى اختيار شخصية «هنرى الرابع» كقالب تاريخى يفرغ فيه فكرته ، وجود عدة ملوك يحملون نفس الاسم ، مما يضع المتفرج أو القارئ أمام حالة غموض وإعنتات فكر ، لا يخفف عنه من وطنها سوى رنين المسرحية الإنسانى ، وأحاديث أبطالها المشبعة بروح القلق

والبساطة ، ثم استعراض مشكلات لا نهائية الزمن وتبدل
عواطف الناس وميولهم .

والعبرة التي يمكن للمرء أن يخرج بها هي أن الدراما مجرد
حادث بسيط وعارض بالجنون أصاب أحد الناس ، وسواء أكان
موضوعها مستقى من الواقع أم أنها مبدعة من الخيال ، فلا شك
في أن قيمتها الفنية كامنة في الطريقة التي لجأ إليها بيراندللو
لتفسير نظريته وآرائه ، إذ جعل منها رواية كل إنسان في كل زمان
ومكان . فإن قصة هذا الرجل الذي يصطنع الجنون ايزعم أمام
الناس أنه هنري الرابع الذي فقد عرشه ، هي في الواقع لحظة من
حياة كل إنسان يتوهم نفسه على صورة من الصور ، فلا يحيد
عن مرعى وهمه قيد شعرة ، ويقضى حياته مقنعاً بقناع شخصية
غير شخصيته الواقعية ، إلى أن تنكشف له الحقيقة ، ويتبين
انخداعه ، ولكن بعد أن يكون قد توغل في الوهم إلى الدرجة
التي يشق عليه فيها أن يعود لبدأ الحياة من جديد ، أي الحياة
الذاتية الصادقة . عندئذ يفضل أن يمضي في طريق الوهم إلى
النهاية ويبقى على انخداعه . . .

حياة قاسية مفجعة ، ولكن كم من الناس هم أفجع قسمة
ومصيراً ، يموتون والقناع على وجوههم ، ويمضون غير عالمين
أهم قضوا حياة أشبه بحياة الممثل على خشبة المسرح ، وأدوا

أدواراً حقيرة تافهة ، تسيرها العادات وتتحكم فيها التقاليد ؟ ! .

* * *

والآن من هو هنرى الرابع ، الذى رمز إليه بيراندللو فى عنوان مسرحيته ؟ إن إثارة هذا الاسم وحده ، يذكرنا بتاريخ الإمبراطور الشاب الذى تولى عرش ألمانيا ، وهو فى السادسة من عمره ، تحت وصاية أمه وأسقف « أجزبرج » حوالى عام ١٠٥٦ . حتى إذا قام الأشراف يهتمون الأم بعلاقة غير شرعية بالأسقف ، بادرت الأم بالتنازل عن الوصاية ، وانخرطت فى سلك الرهبنة ، تاركة وحيدها يشب فى جو من العبث واللهو ، هياً له أساقفة « كولونيا » . فاضطر - والحال هذه - أن يتنازل عن تقاليد الحكم للأسقف « أدلير دى بريم » ، وفى الوقت نفسه تزوج « برت دى سوز » ، ولكنه سرعان ما ملّ عشرتها فهجرتها مفكراً فى أن يسرحها .

وتذكرنا إثارة هذا الاسم أيضاً ، بالنضال الذى قام بين البابوات فى القرون الوسطى ، وبين الأباطرة الألمان المسيطرين على الإمبراطورية الرومانية ، نضال حول الاستئثار بالسلطة الزمنية . ويذكرنا على وجه خاص بالبابا « جريجورى » السابع ، الذى انتخب للكرسى البابوى ، وحاول أن يكون خليفة القيصرية من الرومان ما دام يحسب نفسه ظل الله فى أرضه ، فأخذ يسعى

أولاً في إقناع المركزية « ماتيلدا دي توسكاني » لتتنازل له عن أملاكها ليقوى دعائم عرشه ، فهب الإمبراطور الشاب في وجهه لينعه باسم الملكية الوراثية من الحصول على مطامعه وأغراضه ، ولكن سطوة البابا كانت نافذة ، وشكيمته قوية ، فوجه دعوى إلى خصمه الإمبراطور ليحاكم أمام الكنيسة على الجرائم الخلقية التي ارتكبها ، فلما أبى عليه هنرى الرابع ورفض ذلك الطلب في إباء وشتم ، أصدر البابا نداء إلى شعبه ناشده فيه أن ينفذ من حول الإمبراطور الخليع الذى عصى أوامر الكنيسة . وأخيراً أعلن البابا حرمانه من حقوقه .

لم يقو هنرى الرابع على مغالبة خصمه ، ولم يستطع في النهاية سوى الإذعان لأوامره . وفي هذا اليوم المشهود « يوم ٢٥ يناير عام ١٠٧٧ » سار هنرى الرابع إلى قصر كانوسا حافى القدمين ، ليس عليه من الملابس سوى « عباءة الغفران » المصنوعة من وبر الماعز ، لكي يقدم خضوعه للبابا جريجورى السابع ، ويلتمس أن يرفع عنه قرار الحرمان ، وذلك على الرغم من أن الأساقفة اللومبارديين كانوا يحرضونه على شق عصا الطاعة والخروج على البابا ، فإذا وصل إلى أبواب القصر ، أمر البابا بتعذيبه بأن يظل واقفاً في ساحة القصر زهاء يومين تحت البرد والصقيع ، قبل أن يسمح له بالمشول بين يديه ! . . .

وكان لهذا الإذلال أثره ، فإن عطف الشعب تحول إلى
 الإمبراطور المظلوم ، ولم تمض شهور حتى وجد هنرى الرابع
 من الأنصار والمؤيدين ما يمكنه من شق عصا الطاعة والوقوف في
 وجه البابا ، وفي وجه خصومه السياسيين الذين يناصرون البابا ،
 وظهر بجيشه أمام أسوار روما يحاصر القصر البابوى ، ويلوح
 لسيده بالوثيقة التى وقعها سبعة وعشرون أسقفاً لمباردياً بعزل
 جريجورى السابع الذى لم يعد أباً روحانياً أعظم ، وإنما صار
 كاهناً زائفاً ! . ظل هنرى الرابع محاصراً البابا مدى سنوات
 ثلاث ، لم يستطع أن يكسر فيها من شكيمة خصمه العنيد ،
 وأخيراً تمكن الإمبراطور من الاستيلاء على المدينة ، فلجأ البابا
 إلى إحدى القلاع ، وبقي محاصراً فيها إلى أن جاء جيش مؤلف من
 النورمانيين والعرب الذين كانوا يحتلون إذ ذاك جنوب إيطاليا ،
 فألقوه وأجبروا الإمبراطور على التقهقر ، وأعملوا السلب والنهب
 فى روما ، وأخذوا ألفواً من سكانها أسرى .

* * *

ليست هذه الحوادث موضوع التراجيدية ، التى نحن
 بصدددها ، وإنما هى حقائق تاريخية ، استغلها بيراندللو ،
 تاركاً لقلمه حرية التصرف فيها ، ومعتمداً عليها كهيكل أو
 كقالب يفرغ فيه فكرته ، فلم يهتم وهو بين هذا الخضم الزاخر

بالمواد التاريخية ، بغير التراجيدية التي تتفق وموضوع مسرحيته ،
وبالعناصر التصويرية التي تفيض بها حياة هنرى الرابع ، ولحات
من جهود الذين اشتركوا معه فى حادث كانوسا .

فسياق التراجيدية إذن محض تأليف تصويره المؤلف ، ولكى
نفهمها فهماً جيداً ، نذكر حادثاً وقع قبل ابتدائها بنحو عشرين
عاماً ، ذلك أن البارون « تيتو بلكريدى » أراد التخلص من
مزاحم له فى حب المركيزة « ماتيلده دى سينا » ، على أن لا
تشعر هى بخيانتة وغدره بهذا المزاحم فتتفر منه ، فانتهاز فرصة حفلة
رقص تنكرية ، ارتدى فيها مزاحمه ملابس هنرى الرابع ، وفيما
هم يعدون على ظهور الجياد فى طريقهم إلى المرقص المقنع ،
الذى أقامه أصدقاء المركيزة ، وهم فى ثيابهم التنكرية ، تعمد
البارون أن يسقط مزاحمه عن ظهر جواده ، مؤملاً أن يقتل ،
فيتخلص منه ، ولكن المزاحم أغمى عليه فقط ، وحمل إلى
قصره ، وبعد ساعتين أفاق من إغمائه ، وعاد إليه رشده ،
فانتصب فجأة فى بهو القصر مرتدياً ملابس التنكرية ، وقد خيل
إليه أنه تقمص شخصية هنرى الرابع ، أى الشخصية التى
كان يرغب فى أن يمثلها فى ذلك المرقص المقنع ، فخيل إلى
أصدقائه وأهله أنه يقوم بدوره كما يقومون به جميعاً ، ثم بدأوا
يسخرون منه ومن سحنته التى تغيرت ، بيد أنه جرد حسامه

وانقض به على اثنين من المدعويين ، فامتقت الوجوه فجأة عند رؤية هذا القناع الخفيف الذى لم يصبح تمثيلاً ، بل كان جنوناً ! .

ظل هذا المزاحم ، زهاء عشرين عاماً وهو يصطنع الجنون بشكل كامل ، فاضطر أقاربه إلى أن يسايروا هواه فى الجنون ، فحولوا مسكنه إلى شبه قصر ملكى مؤثث بأثاث البلاط الذى كان مألوفاً فى عصر هنرى الرابع ، وأحاطوه بطائفة من ممرضى الأمراض العقلية ، خلعوا عليهم ثياب المستشارين السريين للإمبراطور الشاب .

وفى خلال السنوات الطويلة التى تلت ذلك الحادث ، كان « هنرى الرابع » الزائف ، يرقب فى صبر نافذ اللحظة المناسبة التى يروى فيها غليل انتقامه من خصمه ، إذ أدرك أن سقوطه عن ظهر الجواد ما كان إلا محاولة أراد بها البارون بلكريدى ، أن يتخلص منه ويجهز على حياته ، ولكن هذا الجنون صنع منه ممثلاً بارعاً خطراً ، ثم راح يتألم فى قرارة نفسه لأن ازدواج شخصيته وتوقده الفكرى المفاجئ ، كانا يباعدان بينه وبين عواطفه الدفينة ، فيحس كأن هذه العواطف غريبة عنه ، وكانت تبدو له أحيانا كأشياء يرى من واجبه أن يكسبها قيمة معنوية ، أى أن يحيلها إلى عمل عقلى يستعوض به عن حرارة

الصدق التي يشعر بأنها تفر منه ، فالجنون هنا بمثابة اصطناع عبقرية أو اصطناع حياة لم يستطع البطل أن يحياها في عالم الواقع ، فأراد أن يحياها في شبه حلم . أما السؤال الذي ينبغي بيراندللو أن يطرحه على الجمهور فهو :

أليس الجنون المموء ، هو في الواقع جنوناً حقيقياً ؟ ! وإذا صادف أن موء إنسان ما بالجنون أعواماً طويلاً ، حتى خدع فيه أطباء الأمراض العقلية ، أفلا يكون جنونه هذا قد أصبح حقيقة واقعة في نفسه ؟؟

هنا يرتفع بيراندللو إلى مصاف « شكسبير » ويصبح بطله أشبه « بهملت » ، فالمشهد الذي يتزع فيه هنرى الرابع الزائف قناع الجنون عن نفسه ليستمرئ لذة انتقامه الشاذ ، هو على قصره وتركيزه من المشاهد التي يكون لها في نفسية المتفرج أبلغ وقع وأعظم تأثير ، فكأن بيراندللو يريد أن يقول ، إن في نفس كل إنسان نزعات وشخصيات متعددة ، فمن اليسير عليه إذن أن يصطنع شخصية غير شخصيته ، لأن الشخصية الحديدية ليست في الحقيقة سوى جزء من نفسه . . . هل هنرى الرابع مجنون يصطنع العقل ؟ ! أو هو عاقل يصطنع الجنون ؟ إنه يلقى هذا السؤال على نفسه ويناقش خصومه بقوله :

أجنون أنا أم غير مجنون ؟ . . لقد ضمقت ذرعاً . . في

وسعكم أن تسحقوا رجلا تحت وطأة كلمة « مجنون » . .
 والواقع أن الحياة منسحقة تحت وطأة كلمات . . هل أنتم جادون
 في اعتقادكم بأن هنرى الرابع ما يزال حيا ؟ . . ومع ذلك ففيها
 أنا ذا أتكلم وأمركم أنتم الأحياء . . أنا الذى أريدكم أحياء
 على هذه الصورة . . قد يبدو من المزاح حقا أن يستمر الأموات
 فى السيطرة على الحياة . . ولكن اخرجوا من هنا واذهبوا إلى
 عالم الأحياء ، وهناك تعلمون أن فى وسع الأموات التحكم
 فى الحياة !

أرأيت سخرية بيراندللو بالحياة ، وبالتقاليد ، وبالأوضاع ؛
 وتأملت الحكمة وهى تجرى على لسان مجنون ؟ فقديماً قال
 العرب : خذوا الحكمة من أفواه المجانين !!

ولكن بيراندللو لا يترك موجة الشك تجرف نفسه ، بل إنه يعود
 فيشرح لك منطق المجانين ، فهم فى اعتقاده حينما يتكلمون
 يضربون بكل شئ عرض الأفق ، وعندئذ تتحطم التقاليد
 وتتطاير النظم وتستحيل إلى هشيم .

فوجودنا أمام أحد المجانين مثلاً معناه وجودنا أمام شخص
 يقوض ما بنيناه حولنا ونظمناه بمنطقنا ، وإنما ليس هذا معناه
 أن المجانين لا يعقلون ، فقد يكون لهم المنطق الخاص الذى
 يتخذ اليوم شكلاً وغداً شكلاً آخر ، ومن يدرى ، فقد نستجمع

قوانا الذهنية ونركزها على شيء معين ، أما المجنون فيستسلم لذلك المنطق الأهوج الخاص به .

وهنرى الرابع لفرط ما استحوذ عليه جنونه المصطنع ، كان يؤمن بوحدة الزمن ، فيخيل إليه ، برغم مرور عشرين عاماً على حادث جنونه ، أنه لا يزال فى سن الشباب ، وسيظل فى السادسة والعشرين إلى الأبد ، وكان يرى فى ماتيلدا دى سبيناء المرأة التى أحبها ومن أجلها كاد يقتل ويلاقى حتفه ، ومع ذلك فقد أحب ابنتها لأنها تشبهها شبيهاً تاماً ، وتطور حبه للأم التى منحت نفسها لخصمه ، فالحياة قد هزأت منه ، وهو بجنونه وحبه لابنة معشوقته ، هزأ بالحياة أيضاً .

وشخصية هنرى الرابع شبيهة بشخصية « هملت » فى بعض المواضع ، ولكنها تختلف عنها فى مواضع أخرى ، كان هملت يتصنع الجنون ليصل إلى غرض فى نفسه ، أى إرضاء شهوة الانتقام ، واختلف المفسرون فى تعليل ذلك : ألم تأت على هملت فترة جن فيها حقاً ؟ على أن هملت لاحت له أكثر من فرصة للانتقام من خصمه ، فكان يؤجل ويؤجل لغير سبب ظاهر ، أما هنرى الرابع فيزعم فى بعض الأحيان أنه عاقل ، وأن جنونه مكر منه ودهاء ، ليتمكن من الانتقام من المرأة التى حاولت أن تذلل كبريائه ، ومن الرجل الذى

زاحمه على حبيها وكاد يفتك به . ولو أننا قد نشك - من
 أحاديثه لما يقع في ختام المسرحية - في أنه كان يتصنع الجنون
 في خلال هذه السنوات الطوال ، ولكن الأحاديث ليست
 بكافية لهذه الدلالة ، فقد تخرج الحكمة من أفواه المجانين ،
 ونحن نعلم أن المجنون ليس مجرداً من موهبة التفكير ، بل هو
 يفكر في اليقظة كما نفكر نحن تماماً ، ويحلم مثلاً نحلم ، وله
 نفس الإحساسات والمدارك التي للعاقل ، وهناك فترات تستضيء
 فيها أذهان المجانين بنور الحكمة ، فيحكمون أحكاماً صائبة
 ويبدون آراء سديدة ، أجل ! إن جنون هنرى الرابع جنون
 ظريف ، وما هو إلا تمثيل دور واحد مدى الحياة ، ولكن هل
 تمثيل هذا الدور يرشدنا إلى أنه كان يصطنع الجنون ؟ مهما
 يكن فإن بيراندلو يدرس في مسرحيته حالة مرضية خاصة ،
 حالة رجل مصاب بما يسميه الأطباء مرض « استنزاف
 الأعصاب » أو إراقة الحيوية الكامنة في خلايا الجسم ، أو
 بعبارة أوضح : هو نوع من مرض « الشخصية » الذى ينشأ غالباً
 عن صدمة وجدانية عنيفة ، أو حادث مرعب أو مفاجآت
 ونكبات ، فتختل أعصاب الشخص ويضطرب عقله وتختلف
 قوة ذاكرته ، ويسيطر عليه العقل الباطن سيطرة تامة .
 ونزيد تعريفاً ببقية الأشخاص الذين يشتركون مع « هنرى

الرابع « فنقول : إن بلكریدی الذي سبب سقوط صديقه عن ظهر الجواد بسبب غيرته الحمقاء ، هو نوع الشخصية التي يلجأ إليها بيراندللو دائماً في مسرحياته ليصور بها طابع الخيانة والغدر . والطبيب يمثل وجهة نظر العلم الموضوعية ، يمثل الفضول ذا الغاية الذاتية ، وعدم الاكتراث بآلام الغير ، وهو العنصر الهزلي في الدراما ، أما ماتيلدا دي سينا وابنتها فريدة ، فالغرض من إظهارهما انتهيدي للحوادث ، وبعبارة أخرى : إن الملاحظ في هذه الدراما خلوها من عنصر النساء ، أو خلوها من نساء هن صفات ممتازة . وصفوة القول أن هذه الدراما هي مأساة الذات المنكرة ، وهي مأساة الضمير الحى حين يصارع الحياة فيتغلب عليها حيناً وتقهره أحياناً ، كما أنها مأساة القلق والتردد الذي يملك على الناس مشاعرهم في أعقاب الحروب واجتياز ويلاتهما .



مطبوعات حديثة

- | | |
|---|----|
| تاريخ الفلسفة الحديثة
للأستاذ يوسف كرم | ٥٠ |
| هاتف من الأندلس
للمغفور له على الجارم بك | ٢٥ |
| اليوم خمـر
للأستاذ محمود تيمور بك | ٢٥ |
| قادة الفكر (طبعة جديدة)
للدكتور طه حسين بك | ٢٠ |
| التصوير الفني في القرآن (طبعة جديدة)
للأستاذ سيد قطب | ٢٥ |
| مأساة مايرلنج
للأستاذ محمد عبد الله عنان | ٢٠ |

ملزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

دخائر العرب

مجموعة نفيسة تنتظم أقوى ما في تراثنا العربي من آثار
خالدة مجلوة في حلة جميلة أنيقة وعلى وجه دقيق من
التحقيق العلمي بمعاونة حضرات الأساتذة :

محمد حلمي عيسى باشا والدكتور طه حسين بك
والأستاذ أحمد أمين بك والدكتور عبد الوهاب عزام بك
والشيخ أحمد محمد شاكر والأستاذ إبراهيم مصطفى .

ظهر منها :

١ - مجالس ثعلب لأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب
(قسمان) تحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون .

٢ - جمهرة أنساب العرب لابن حزم تحقيق المستشرق
الأستاذ أ . ل . بروفنسال .

٣ - إصلاح المنطق لابن السكيت تحقيق الشيخ أحمد
محمد شاكر والأستاذ عبد السلام محمد هارون .

تصدرها دار المعارف بمصر

على هامش السيرة

للدكتور طه حسين بك

نال عليه مؤلفه جائزة فؤاد الأول في سنة ١٩٤٩

كتاب في ثلاثة أجزاء يصور عصر النبوة وما
سبقه من أحداث تصويراً بارعاً في أسلوب
قصصي يملك على القارئ عنان ذهنه وقلبه .

٢٥

٢٥

الجزء الأول (طبعة جديدة)

٢٥

الجزء الثاني

٢٥

الجزء الثالث

ملئزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

المسند

للإمام أحمد بن حنبل

الكتاب الذي جعله مؤلفه للناس إماماً يرجعون إليه في أمور السنة.

شرحه ووضع فهارسه

الشيخ أحمد محمد شاكر

ظهر منه :

٨٠

ثمان الجزء

٦ أجزاء

١٠٠

(طبعة ثانية)

ثمان الجزء الأول

تحت الطبع :

الجزء السابع

مكتبة الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

مكتبة الأطفال

للأستاذ كامل كيلاني

مجموعة نفيسة تحتوي على أكثر من أربعين
كتاباً مصوراً . وقد فازت بإعجاب رجال
التربية والتعليم وبرضى الجمهور واستحسانه
في جميع البلاد العربية .

المكتبة الحديثة للأطفال

للأستاذ محمد عطية الإبراشي

مجموعة قصص عذبة اللغة ، جميلة التصوير
روعت فيها ميول الأطفال وأحدث النظريات
في التربية وعلم النفس .

روضة الطفل

أول مجموعة من نوعها باللغة
العربية يجد الطفل فيها قصصاً
مفيدة مزينة بالصور
المبتكرة ومطبوعة بالألوان الجميلة

تصدرها دار المعارف بمصر
بمعاونة السيدة أمينة السعيد والدكتور يوسف مراد
والأستاذ سيد قطب .

أولادنا

مجموعة من القصص الرشيدة المفيدة
يجد فيها الطالب في جميع مراحل النمو
المتعة والثقافة وسمو النفس .

تصدرها
دار المعارف بمصر
بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك



دار المعارف بمصر

أسست بالقاهرة سنة ١٨٩٠

تقدم إلى القارئ في مختلف مراحل
حياته ومتباين درجات ثقافته كل
ما يحتاج إليه في تكوين مكتبة عربية
في منزله لتساعده على الاستزادة من
الثقافة والطموح إلى حياة عقلية راقية .

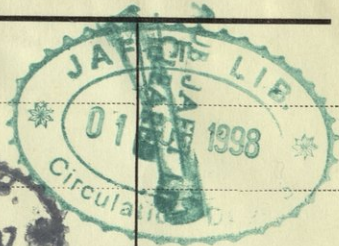
الإسكندرية :
٢ ميدان محمد علي

القاهرة :
٧٠ شارع الفجالة

س . ت . ٥٢١٢١

126

DATE DUE



858:P667YhA:c.1

حسونة، محمد امين

بيراند ييلو

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01032103



General Library

858
P667YhA
C.1